وهـــران تحتفـــل
بذكـرى مولد الرسول الاعظـم (*)

عبد القادر الزبـير
مدير التعليم الاصـلى والشؤون
الدينية بولاية وهران

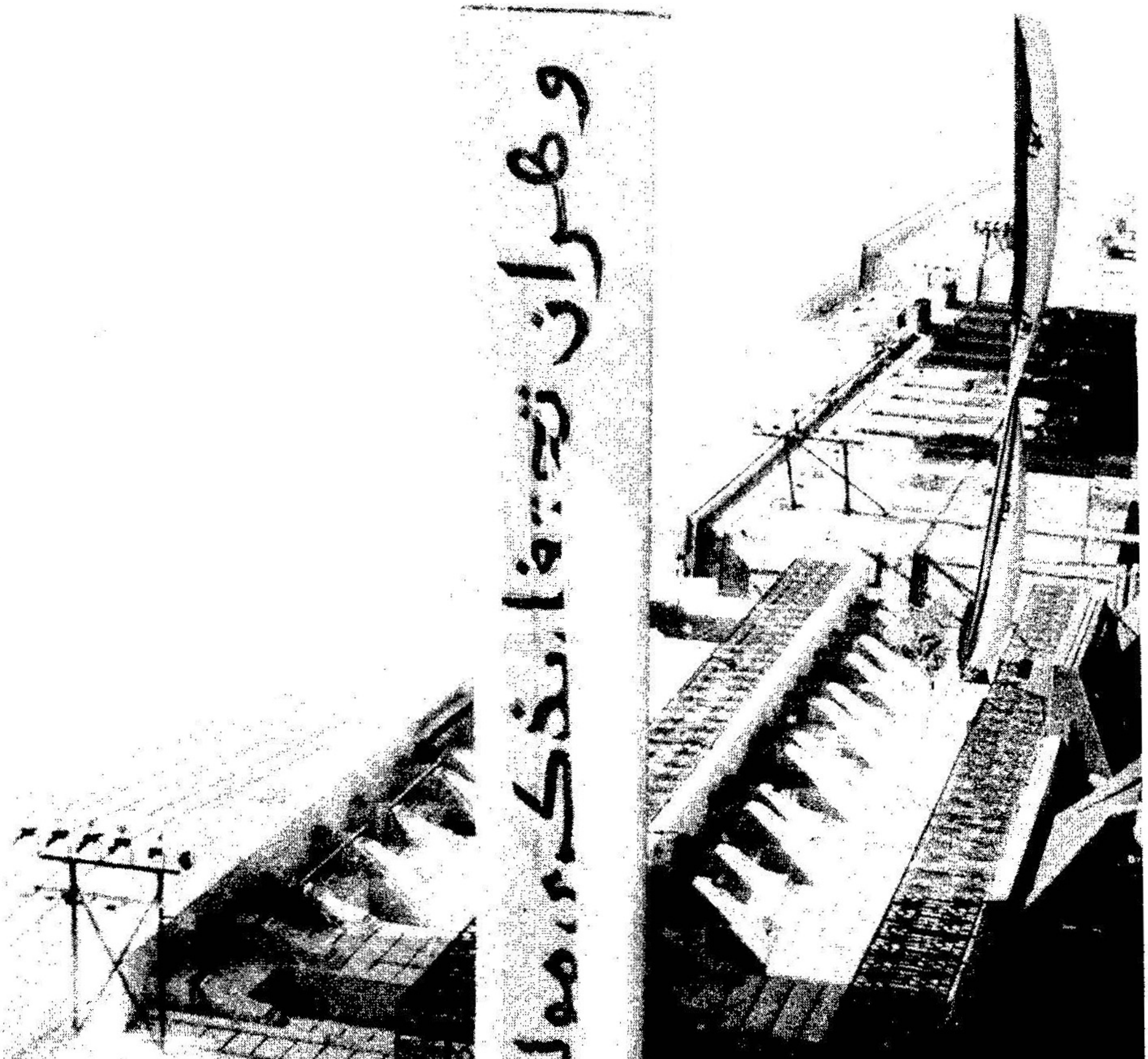
عاشت مدينة وهران كغيرها من مدن وقرى الوطن جـوا حافلا بالبهجـة والسرور احتفاء بالمولد النبوى الشريف ، واحياء لذكرى مولد رسول البشرية وخاتم المرسلين ٠

فقد زينت واجهات جميع المساجد بالمصابيح والانوار الساطعة والاعلام الوطنية ، هذه المساجد التى بقيت تستقبل الوفود الحاشدة من المؤمنين ، فلم تغلق أبوابها لا ليـلا ولا نهارا ، عامرة بالدروس والمحاضرات وترتيل القرآن الكريم من فوق المنارات ٠

وقد عرفت الشوارع نفس البهجة حيث امتلات بحركة غير عادية ، تمثلت فى مسيرة شعبية ضخمة ، كانت تتقدمها الخيالة وفرق مختلفة من اشبال الثورة ، وطلبة ثانـوية محمد بن عثمان الكبير وفرقة (البلابل الرستمية) من غار داية ، وتلاميذ نادى المجاهدين والكشافة تعزف الالحان الجميلة مع الاناشيد الدينية والوطنية ، تتخللها طلقات البارود وزغاريد النساء من فوق الشرفات ، وقد علقت فى الشوارع شعارات اسلامية تبـرز أصـالتنـا وانيتنـا ٠

(*) يشتمل هذا العدد على الاحتفال بذكريات أربع هى : ذكرى المولد النبوى الشريف، وذكرى جمال الدين الافغانى ، وبيتهوفن ، وابن باديس ٠ وقد رتبناها حسب تتابعها فى الزمن ٠

« الأصالة »


وهران تحتفل بذكرى مولد الرسول



ليلة المولد النبوى الشريف فى شوارع وهران ، (وهنا فى شارع ابن مهيدى)

وتفضل معالى السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينيـة الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم استجابة لدعوة من رئيس المجلس البلدى الشعبى ومن مدير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالاشراف على هذه الاحتفالات . فوصل الى مطار السانيا وهران يـوم الثلاثاء II ربيع الانور 97 هـ الموافق لـ I مارس 1977 م فاستقبلته السلطات المـدنية والعسكرية استقبالا رائعا . كما استقبله الشعب عند مدخل جامع الصحابى عبد اللـه ابن سلام استقبالا حارا منقطع النظير بتصفيقات حادة وهتافات ، تمجيدا لديننا الاسلامى الحنيف ، ولثورتنا المباركة ، وبعد صلاة المغرب دشن سيادته قاعة المحاضرات التابعـة للمديرية بمحاضرة قيمة تحت عنوان « مغزى ملتقيات الفكر الاسلامى » (ستنشر فى العدد القادم) حضرها جم غفير من المواطنين والمواطنات ، كانت تردد صداها مكبرات الصوت المنتشرة فى الشوارع ، وبعدها اتجه الموكب مشيا على الاقدام نحو قاعة سينما المغرب مارا بساحة فاتح نوفمبر ، وشارع الامير عبد القادر ونهج العربى بن مهيدى . فعمت الفرحة الكبير والصغير ، الرجال والنساء ، وعلى الثامنة مساء ، القى السيد الوزير بقاعة المغرب محاضرة ثانية تحت عنوان : « اهتمام الامم بايامها » (تجدون نصها فى هـذا العـدد) .

وعقب المحاضرة قامت فرقة البلابل الرستمية من غار داية فقدمت مدائح دينيـة مختلفة ، اطربت الجمهور الغفـير بأصواتها العذبة ، والحانها الجميلـة ، تلتها الفرقـة الموسيقية لبلدية وهران ، ثم مجموعة من طلبة ثانوية محمد بن عثمـان الكبير للتعليم الاصلى ، واختتم الحفل بتوزيع الجوائز على الفائزين والفائزات فى مسابقة رمضـان المنصرم ، وقد طاف معالى السيد الوزير ليلا على بعض المساجد ، قبل ان يلتحق بدار الولاية.

وفى صبيحة يوم المولد الشريف ، نظم المجلس الشعبى البلدى لوهران حفل استقبال على شرف السيد الوزير والوفد المرافق لـه ، تـوجه بعده الى المـركز الثقافى لمنظمـة المجاهدين ، حيث اطلع معاليه على مختلف اقسامه ونشاطاته ، واستقبل باناشيد ومدائح دينية من تقديم فرقة النادى ، ثم تحول الى مقر مديرية التعليم الاصلى والشؤون الدينية لعقد اجتماع مع رجال السلك الدينى بولاية وهران ، ركز كلمته على دور المسجد فى تدعيم المكتسبات وتنشيط الحياة الثقافية ، فواجب امام المسجد كما قال : ان يكون قدوة وان يوافق لقبه مظهره ، فله بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه الاسوة الحسنة ، فهـو أول من لقب بامام ، وطلب السيد الوزير من الجميع ان يكونوا « الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة » ، وحذرهم من الركود والخمول ، وحثهم على اليقظة والعمل ، والقيام بدروس الوعظ ومحاربة الامية وتعليم القرآن الكريم ، حتى يصبح للمسجد دوره فى حياة البلاد كما كان قديما دار علم وعمل وعبادة . وليس مكانا تؤدى فيه الصلوات الخمس أو صلاة الجمعة فقط .



أشبال الثورة ليلة ذكرى المولد النبوي الشريف في شوارع وهران



احدى الفائزات فى مسابقة رمضان تتسلم جائزتها فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى قاعة المغرب بوهران ٠

وفي نفس الوقت يكون الامام رجل علم وديـــن وعمل ، وليس موظفا لاداء خمس صلوات في اليوم فقط ·

هذا وقبل مغادرة السيد الوزير والوفد المرافق له مدينة وهران تفقد ثانوية محمد ابن عثمان الكبير للتعليم الاصلي حيث استقبل من طرف المدير والاساتذة والطلبة استقبالا حارا ، وهكذا تكون ولاية وهران قد ساهمت في تخليد هذه الذكرى الغالية ، ذكـــرى مولد الرسول (ص) الذى ارسله الله بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ·

كلمــة السيد العربى ابراهيمى

النائب الاول لرئيس المجلس البلدى الشعبى لمدينة وهران

فى حفلة الاستقبال بدار البلدية ، يوم ذكرى المولد النبوى الشريف

انى أرحب مرة ثانية ولست أدرى من قال ومن عادته معاداة المعادات ، لا بأس فى التكرار ان كان صاحبه وصاحب الموضوع أهلا وكفئا له ، فيا أخى الوزير أهلا وسهلا بكم فى دار الشعب ذلك الشعب الذى برهن لكم البارحة وبرهن للقطر باسره كم هـــو متشبث بأصوله الدينية العميقة وكم هو حساس بكل من أحسن ضرب الوتر الـــلائق فى صميم فؤاده ، سيدى الوزير ان قلت مرحبا فلا أبالغ وانما أنتم من بيننا ، أنتم أخ لنا فأنتم فى دار الشعب بين احضان الشعب ، فمرحبا بكم والسلام عليكم ·

كلمــة الترحيب للاخ محمد زمانى

منسق منظمة المجاهدين على مستوى ولاية وهران فى مقر المجاهدين

باسم المجاهدين وباسمكم جميعا نرحب باخينا المجاهد الاخ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى مقره هذا الذى انتمى اليه بالامس خـــلال حرب التحرير ، والذى يناضل اليوم وهو فى مركزه الا وهو مركز المجاهدين الـــذى يحتوى اليوم على أكثر من (745) ابن شهيد ومجاهد يتعلمون على مختلف المهن والحرف والتعليم المتوسط والثانوى ، وكل ما زرتموه وشاهدتموه أخى الوزير فى هذا المركز ،

اهتمام الأمم بأيامها (1)

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلي
والشؤون الدينية

بسم الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

اخواني أخواتي ،

أود قبل كل شيء أن أشكر السيد رئيس المجلس البلدي الشعبي ، ونائبه ، والمجلس كله ، على اعطائي هذه الفرصة الطيبة للاجتماع بكم ومشاهدة هذا المنظر الرائع في المدينة الثانية للبلاد والعاصمة في القطـاع الغربي منها .

وأشكركم على هذه البادرة التي نرجو أن تكون قدوة لمدن أخرى في وطننا العزيز ، باعطاء هذا الاحتفال هذا الطابع الشعبي والرسمي ، في هذا اليوم العظيم الذي برز فيه نور أضاء العالم ، أضاء البشرية ، كان منطلقا جديدا للبشرية ، كان تحركا رائعا دفع بها الى مصاف

(1) ارتجلها في قاعة « المغرب » ليلة المولد النبوي الشريف 1397 هـ الموافق لـ 02 مارس 1977 م بدعوة من المجلس البلدي الشعبي لوهران .



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وهو يلقى الكلمة فى **قاعة المغرب**:« **مغزى احتفال الامم بأيامها** » . ويرى على يمينه السيد العربى ابراهيمى ، النائب الاول **لرئيس المجلس** البلدى الشعبى لمدينة وهران .

أخرى ، الى عوالم أخرى من العلم ، ومن الحضارة ، ومن الرقى ، ومن القيم التى هى تاج كـل شىء ٠

فالانطلاق الاول للاسلام بنزول الرسالة على خير الانام عليه الصلاة والسلام قد أضاء لا الجزيرة العربية وحدها ، كما نعلم كلنا ٠ ولا العالم العربى فى مجموعه الواسع فيما بعد ، ولا حتى ما أصبح فيما بعد العالم الاسلامى الاوسع ، بل أضاء البشرية كلها، العالم كله استضاء بذلك النور ، وبذلك يعترف الكثير الآن ٠ فقد بدأوا فعلا يعترفون وباطراد كل يوم أكثر من ذى قبل ٠

فالجزيرة العربية التى كانت ، كما نعلم كلنا من كتب التاريخ ، بؤرة للفتن بـين القبائل ، ومرتعا للجهال ، ومعبدا كاملا ، من حدود الى حدود ، للوثنية ، وللجهالة ، وللطغيان ، ولتغلب المال ، والمحظوظية ، والمحسوبية ، كما نقول اليوم ، والنخـوة العوجاء ، ووأد البنات ، والافتخار بالآباء ، وبالضلال ، والاعتزاز بالظلم ، كما نعلم كلنا من الامثال ، ومن القصائد ، ومن التاريخ ، والتى كانت مستعمرة اذ ذاك تقاسمها الفرس والروم ، أصبحت ، بين عشية وضحاها ، بفضل هذا النور الالهى ، بفضل البعثة المحمدية ، بفضل الرسالة الالهية ، منطلقا لاشعاع ، منطلقا لنور يعم العالم ، منطلقا لاضواء تغمر البشرية كلها ، منطلقا لقيم تمحو من وجوه البشرية ما كان قـد علق بها من شوائب ومن رواسب هى الحضيض الجهالة ، وفى الوثنية ، وفى الاقتتال، وفى التناحر، وفى التباغض الذى أدى كما نعلم الى الحروب المعروفة بأسمائها كالبسوس وغير البسوس ٠ واذا بها تصبح منطلقا لنور عالمى نجد حتى أكثر الاعداء تالبا عـلى الاسلام ، وعلى حضارته ، وعلى فكره ، وعلى ما أتى به للبشرية ، يعترفون اليوم به ، ويعقدون له مؤتمرات ومهرجانات فى أكبر العواصم الاوروبية التى كانت بالامـس ألد أعداء الاسلام ، وأكبر المعاول للعمل على تحطيمه ، والقضاء عليه ، والالقاء به على هـامش البشرية ٠

وهكذا نجد ـ وأستطيع أن أحدثكم هنا عن انطباع شخصى ـ هكذا نجد البشرية الراقية ، كما نقول اليوم ، المتعلمة ، فى العوالم المتقدمة ، المتحضرة ، التى هى فى قمة الثقافة بالنسبة لمستوى اليوم ، نجدها تتزاحم فى لنـدن فى السنة الماضيـة

لمشاهدة بعض معالم ، أقول بعض المعالم الباقية من ذلك البحر الزاخر ، من تلك الكنوز التى ما كان ينبغى لها أن تفنى أبدا ، وما كان ينبغى لها أن تطمس بالشكل الذى طمست به . ومع ذلك فالشىء القليل الذى بقى كانت تتزاحم عليه البشريةمن القارات الخمس . سمعت هناك فى لندن لغات مختلفة ، ورأيت هناك ألبسة وأردية تدل على اختلاف جنسيات أصحابها ، بل واختلاف قاراتهم ، وهم يتزاحمون فى المتاحف العلمية فى لندن على مشاهدة تلك الاشياء ، تلك الجزئيات ، تلك الذرات التى بقيت من تلك الكنوز الزاخرة التى نتجت عن تلك الانبعاثة الاولى فى الجزيرة العربية الجرداء ، القاحلة ، الجاهلة ، الامية ، التى أصبحت فيما بعد منبعث النور الالهى الذى أصبح يتزاحم على مشاهدة ما بقى من بعض آثاره فى لندن ، وتشرف على تدشين تلك المعارض ملكات ، وتتزاحم عليه الشخصيات من مختلف المستويات العلمية العليا ، فى الشرق والغرب ، ذلك التزاحم الشديد بالمناكب ، فى صفوف ومواكب .

انطلق – كما نعلم كلنا – ذلك النور واذا ببحار من تلك الاضواء تغمر البشرية ، منطلقة من هناك ، وتصبح تلك الجزيرة القحلاء منبعثا لاساتذة البشرية ، تصبح بعض نتائج أعمال المؤمنين بالرسالة المحمدية هى المصادر والمراجع للبشرية كلها حتى اليوم .

نعم ، فكلما اكتشف أكبر عالم ، فى أى بلد متطور فى عالم اليوم ، أى اختراع علمى كان ، الا ورجعت به الذاكرة الى تلك الاسس التى انطلق منها ذلك العلم ، تلك الاسس الاولى التى انطلقت منها تلك البحار الزاخرة التى تنعم بها البشرية المتقدمة اليوم والتى لا تصلنا منها الا بعض الاضواء الباهتة .

ذكرت منذ لحظة فى المركز الثقافى الاسلامى بمديرية التعليم الاصلى ان فى السنة الماضية فقط ، كمثلين اثنين ، أن عالمين من أوروبا الشرقية ، أحدهما هو الاستاذ بييلافسكى من جامعة فرصوفيا ، فى بولونيا ، والآخر الاستاذ الدكتور هرمان لاى، من جامعة برلين فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، أشادا كل الاشادة بما أعطته هذه الحضارة العربية الاسلامية التى انبثقت عن الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام . ذكرا أن تلك الاضواء عمت العالم كله ، ومنه بلداهما ، فبين الاول الامجاد التى ما تزال تشهد بها جامعات كراكوفيا وفرصوفيا فى بولونيا اليوم، وذكر الآخر المآثر

التى ما تزال تعترف بها اليوم جامعة يينا ، وهى من أكبر جامعات ألمانيا ، التى درس فيها كبار علماء ألمانيا ودرس فيها أيضا كثير من نخبة البشرية فى القرن الماضى خاصة وفى بداية هذا القرن ، منها ان تلك الجامعة كانت تدرس كتاب الكليات لابن رشد حتى القرن الثامن عشر ، كما كان كتاب القانون لابن سينا يدرس أيضا فى تلك الجامعات حتى القرن الثامن عشر ، كما ذكر الاستاذ هرمن لاى ، واضيف الى ذلك أن آخرين ذكروا أشياء أحدث من ذلك ، فالاستاذ المؤرخ الفرنسى المشهور بيكافى Picavet فى كتابه « محاولة دراسة مقارنة لفلسفات وعلوم القرون الوسطى » (2) ، ـ والكتاب موجود فى جامعة الجزائر ـ ذكر أن كتاب القانون لابى على بن سينا فى الطب كان يدرس فى جامعة لوفان فى بلجيكا حتى سنة 1909 ، نعم ، 1909 !

هذه بعض الاضواء التى أنارت بها هذه الرسالة مجموع البشرية .

انظروا الى الفارق الهائل وتلك الهوة السحيقة بين ذلك الوضع الذى وجد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، برسالته الالهية ، اذ ذاك البشرية ، وبلاده بالذات ، الجزيرة العربية ، ثم ما أوصلها اليه ، وما أوصل البشرية كلها فيما بعد فى ظروف لا تكاد تعد ، لا تكاد تعتبر بالنسبة الى تطور الحضارات البشرية على مر التاريخ .

نذكر كلنا ما كتبه الفيلسوف الكاتب المؤرخ الاجتماعى غوستاف لوبون عندما قال فى كتابه المشهور « حضارة العرب » (3) ، ان حضارة اليونان كانت فى القمة بما أعطته للبشرية فى مختلف مجالات العلوم والفنون ، وان ليس هناك فى تاريخ البشرية الا حضارة واحدة والا فكر واحد يضاهيان الفكر اليونانى والحضارة اليونانية فى هذا المستوى وهما الفكر الاسلامى والحضارة العربية الاسلامية ، وأضاف أن كلا منهما ، كلا من حضارة اليونان والحضارة الاسلامية ، قد ذهبتا ، لا أريد أن استعمل التعبير الذى استعمله ، ولكن قد تستطيعون أن تتصوروه ، تعبير فى غاية السلبية طبعا ، لا أدرى اذا كان مبعثه الاسف على ما مضى وانقضى فى نظره ، أو كان ذلك منه نوعا من الشماتة بما حدث ، ولا أظن هذا التأويل الاخير ، نظرا للطابع العام لكتابه .

---

(2) Picavet : "Esquisse d'une étude comparée des philosophies et sciences médiévales".
(3) Gustave Lebon : "La Civilisation des Arabes".

وهنا نقول ان الحضارات لا تنقرض أبدا ، كما يدل على ذلك ويؤكده لنا علماء الاجتماع وعلماء تاريخ تطور الشعوب والعلوم والفنون · فهى لا تنقرض أبدا ، وان الاشعاع الذى تركه الفكر الاسلامى ، وتركته الحضارة العربية الاسلامية فى تطور العالم ، تلك الدفعة التى دفعت بها البشرية الى الامام ، تلك الشحنة الروحية التى جعلت البشرية تقفز خطوات على هوات ساحقة الى الامام ، لا تزال جذوتها الى اليوم ، ولا يمكن أن تنطفىء أبدا ، ليس فقط لانه دين يعتمد على كتاب سماوى هو خاتم الرسالات وأتى به خاتم الانبياء ، ولكن أيضا بما قام به أبناء هذا الدين ، بما قام به معتنقوه ، بما قام به الذين عملوا على تطوير ذلك الفكر ، بما قام به الذين جاهدوا واجتهدوا للاستمرار بذلك الاشعاع فى صالحهم وفى صالح البشرية كلها ·

وان ما نراه من الاقبال اليوم فى العالم كله على الرجوع الى تلك المصادر ، بعد انقراض العهد الاستعمارى الى الابد ، بعد ضعف ، لا زوال ، ولكن ضعف النعرات الدينية المتعصبة من صليبية وغيرها ضد الاسلام ، وحضارته ، وفكره ، لاكبر دليل على أن هذه الحضارة اليوم توجد فى بدء منطلقها الجديد بفضل تلك الدفعات الروحية ، بفضل تلك الشحنات المعنوية التى تمدها دائما والتى كلما ضعفت ، كلما بدا أنها ضعفت ، الا وقامت من جديد بقوة أكبر من قبل ، واسترجعت عزتها ، واستأنفت انطلاقها ، وكان ذلك مبعثا لها من جديد لا لامتها فقط ، ولكن للبشرية كلها · ان ذلك الاقبال على مشاهدة آثار الحضارة والفكر الاسلاميين كنت أتمنى لجميع المسلمين ان يشاهدوه · أعيد وأكرر وأعود دائما الى ذلك الاقبال الذى شاهدته فى لندن ــ والى هذا التأكيد ــ الذى لا أكل ولا أمل أبدا من اعادته ــ على الاهتمام بالاحتفال بما كانت العرب تسميه « الايام » ، أيام العرب ، وبما يسمى اليوم بالاعياد المائوية ، وبالمهرجانات الالفية الخ ·

هذا كله مما يعزز فى الامة اقتناعها بقيمها ، ومما يعيد اليها روحها ، ومما يبعث فيها الانطلاقة ، ومما يبث فيها القوة المعنوية ، ومما يرجع اليها اعتزازها بنفسها ، ومما يؤكد فيها ثقتها بذاتها ، وبتراثها ، وبماضيها ، ويعطيها اليوم قوة وشحنة

للانطلاق فى الغدد ، ولاستعادة ما مضى وانقضى من المجد ، وتقوية ما شحب من ألوان ولوينات تلك الاضواء التى أنارت بها البشرية كلها ٠

الدول المتقدمة فى القمة اليوم تحتفل بادنى شيء من مظاهر حضارتها وماضى فكرها ومجدها ٠ نجد ذلك حتى فى البلدان المتطورة التى لا تحتاج الى دعاية كثيرة فى الواقع ، بفضل ما أدركته من تقدم ، ومن حضارة ، ومن الاشعاع على البشرية اليوم ـ وتلك الايام نداولها بين الناس ـ ومع ذلك نجد هذه الامم تحتفل بأدنى ذكرياتها ، وتبعث من النسيان ، وتبعث من تحت طبقات النسيان ، من تحت طبقات الادمغة المتحجرة ، تبعث بالاكسيجين بين طيات المادة الزرقاء لتتذكر بأن لها ماضيا ، لتتذكر بأن لها مجدا ، لتتذكر بأن لها قدما وقدما راسخة فى الحضارة ، وفى الفكر ، وفى التقدم ، وفى المساهمة فى التراث البشرى ٠

كثيرون منكم رأوا تلك اللوحات فى بلدان أوروبية ـ اذا ما لاحظوا ذلك ، واذا ما أعاروا تلك اللوحات التى ربما ليست براقة ، وربما عليها مسحة من القدم ، من عفو الزمن ، كم شاهدوا من تلك اللوحات على الجدران ، وعلى الابواب ، بأن الكاتب الفلانى عاش فى هذا البيت ، بات فى هذا المنزل ليلة واحدة ، شرب فى هذا المقهى مرة فى حياته ، ومر الشاعر الالمانى المعروف غوته مثلا بهذا المقهى وتناول قهوة ، وبات بلزاك، أو موليير ، أو لافونتين ، أو ديكارت ، أو شوبنهاور ، أو كنط ، أو بيتهوفن ، أو تشايكوفسكى فى هذا الفندق ليلة واحدة ٠

اليوم تجدون ذلك فى هذه البلدان التى هى الآن فى قمة التقدم ، وفى قمة التطور، وفى قمة التنمية ، وفى قمة التحضر ، ومع ذلك تعير هذه الجوانب الجزئية كل الاهتمام، لتغرس فى شبابها الاعتزاز بماضيها ، والاشادة بأمجادها ، لتبقى تلك القيم دائما حية فى أولادها ، ولتمد الاجيال التى تأتى بعدها بتلك الشعلة ، ولتستمر حياة تلك الامم ، وليستمر الاعتزاز بالماضى ، وتلك الثقة المكتسبة من مشاهد أمجادها ٠

ونحن علينا أن نفعل ذلك ليس فقط حتى لا يتوهم شبابنا أننا نعيش من فتات البشرية فقط ولم نزد الى تراثها شيئا ، بل أيضا لنغرس فى نشئنا روح الاعتزاز ،

روح الثقة بماضيه ، وبتقاليده ، وبأصالته ، بتراث أجداده ، بأمجاده ، ليستمر في الانتاج ، ليستأنف هذه المسيرة ، ولينتج للبشرية ، وليسير قدما في مصاف الامم في هذه المسيرة الحضارية والفكرية ، وألا نبقى عالة فقط على البشرية نعيش من فتاتها، وألا نبقى معقدين بالدعاية التي أكل الدهر عليها وشرب ، والتي لم تعد اليوم وقد مضى الاستعمار وانقضى ، وهو الذي غرسها فينا ، والذي حاول أن يعمقها فينا ، لنبقى دائما متعلقين به ، عاجزين عن الاستقلال بأنفسنا ، والمساهمة في المسيرة البشرية بشيء

تعلمون ما أكده الاستعمار في الجزائر في المرحلة الاخيرة من طغيانه ، أكد كم من مرة أن الجزائر لم تكن أبدا دولة من الدول ، ولكن عندما رجعنا الى المراجع الفرنسية نفسها وجدنا أن الجزائر عقدت سنة 1534 المعاهدة الاولى مع فرنسا ، وكان يمثل الجزائر خير الدين ، ويمثل فرنسا فرنسوا الاول نفسه ، ذلك الامبراطور الذي يعتبرونه من قمم أمجادهم ، ويمثل الخلافة العثمانية سليمان القانوني • وكانت الجزائر اذ ذاك دولة من الدول الكبرى ، كان خير الدين في مصاف فرانسوا الاول بالنسبة لاوروبا والسلطان سليمان القانوني بالنسبة لمجموعة كبيرة جدا من البشر ، وكانت الدولة العثمانية اذ ذاك في قمة الازدهار •

ويأتي الفرنسيون ويقولون ان الجزائر لم تكن دولة في تاريخها أبدا ، لم تكن أمة ولا دولة • تلك كانت المعاهدة الاولى ، وهي معاهدة شاتيلرو (4) • معقودة سنة 1534 • وكان ذلك انطلاقة فقط للعلاقات بين الجزائر وفرنسا ، اذ بلغ عدد تلك المعاهدات 65 باتفاقيات ايفيان ، وكانت قد بلغت بمعاهدة 1847 ، التي تم فيها القضاء بتغلب الاستعمار والقوة الغاشمة على الامير عبد القادر ، بلغت 64 ، وجاءت معاهدة ايفيان فكانت المعاهدة الخامسة والستين • ومع ذلك تأتي فرنسا وتدعي أن الجزائر لم تكن أمة من الامم !

لابد من بعث هذه القيم ليعرف أبناء الجزائر أن بلادهم كانت اذن في يوم من الايام ، في فترة معينة من التاريخ ، في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ،

(4) Le Traité de Chatellerault أنظر إنية وأصالة لصاحب هذا النص.

من الدول الكبرى ، فى مصاف أعظم الدول فى العالم · لابد أن يعرف أبناؤنا هذا · واذا ما ضربنا صفحا عن تلك الفترات المجيدة من تاريخنا ظـل أبناؤنا يظنون أن الجزائر لم تولد الا فى سنة 1962 ! لا ، الجزائر لم تولد سنة 1962 ! فبقطع النظـر عن دولة ماسينيسا ويوغورطا ، وعن التاريخ الاسلامى بعصوره الذهبية ، من الدولة الرستمية ، والحمادية ، والزيانية ، جاءت هذه الفترة التى أنجدنا فيها البشرية كلها ، وليس العالم الاسلامى فقط ، بمساهمة كبيرة جدا فى مختلف المجالات ·

وقد أثبت لكم مثلا الاستاذ عثمان الكعاك رحمه الله وغير الكعاك ما قدمته الجزائر للبشرية فى القرن السادس عشر وقبل القرن السادس عشر ، فى القرن الثانى عشر ، وأكدته أيضا الدكتورة سيغريد هونكه الالمانية ، وأكد آخرون ما قدمته الجزائر نفسها ، الجزائر وليس فقط العالم الاسلامى بمجموعه ، ولكن الجزائر بالذات · ونحن هنـا نحتفل بليلة المولد النبوى الشريف التى لا تخص الشعب الجزائرى والامة الجزائرية فقط ، بل تجمعنا وتضمنا مع المليار من البشر الذين تعدهم الامة الاسلامية الكبرى · قدمت فى عهود الدول الثلاث الكبرى : الدولة الرستمية ، والزيرية ـ الحمادية فيما بعد ، ثم العبد الوادية ـ الزيانية ، للبشرية مساهمة كبرى · بل وحتى فى العهـد الاخير ، حتى فى القرن السادس عشر ، بعد ابتداء عصر الجمود والخمود ، كما سمـاه ابن خلدون ، كانت هناك آخر محاولة لنا ، وهى من العظم بمكان ، محاولة جبارة كبيرة يستشهد بها العلماء فى كتب التاريخ ، وهى محاولة ابن حمزة الجزائرى الذى قدم فى علم المثلثات الكروية Trigonométrie مساهمة كبيرة ، وطبع كتابه فى تركيا ، وكان منطلقا للعلم فى أوروبا ، كان منطلقا لهذا العلم ، علم المثلثات ، فى أوروبا · هذا فى القرن السادس عشر ، فى العصر الذى يسمونه عصر الجمود ، والخمود ، والهمود ، فى العهد التركى كما نسميه خطأ ·

ونحن لا نقول العهد التركى ، اللهم الا اذا كان كخلافة عثمانية تضـم العـالم الاسلامى كله ، ولكننا كدولة ، كنا دولة مستقلة ، تابعة روحيا فقط للخلافة ، ولكنا كنا دولة مستقلة ، كما تؤكدها الكتب الفرنسية التى أستطيع أن أذكر لكم منها العديد

جدا ، ومنها كتاب هانرى ڤارو (5) « التاريخ العام للجزائر » وهو موجود فى مكتبة جامعة الجزائر ، الذى يذكر فيه عدد هذه المعاهدات الذى أشرت اليه لكم منذ لحظة والتى عقدتها الجزائر كجزائر ، كدولة مستقلة ذات سيادة ، مع فرنسا ، ومع أمريكا ، وغيرهما ·

الجزائر كانت أول دولة اعترفت بالثورة الفرنسية فى الوقت الذى عاكستها أوروبا الملكية والقيصرية كلها ، كما كانت الجزائر من أولى الدول التى أعترفت باستقلال الولايات المتحدة فى عهد جغرسون وميديسون ، وعقدت أول معاهدة معها فى وقت الداى حسن مع حكومة ميديسون سنة 1795 ، وأقرض الداى حسن الاخير فى سنة 1793 ، فى عهد الفترة الثانية للثورة الفرنسية بعد 1789 ، لحكومة Directoire مبالغ عدها أخيرا بعض الكتاب الفرنسيين ــ وذكرت ذلك فى كتاب « إنية وأصالة » (6) ــ بمبلغ أربعين مليارا بعملة اليوم ، أى تبلغ ديون فرنسا الى اليوم نحو الجزائر مبلغ أربعين مليارا بعملة اليوم من الفرنكات القديمة ، ومع ذلك تدعى وتقول ان الجزائر لم تكن دولة من الدول ولا أمة فى التاريخ !

ولهذا ، اخوانى ، أؤكد دائما على ضرورة هذه الاحتفالات بأمجادنا ، والاعتزاز بتاريخنا ، وبماضينا ، وبما قدمه أجدادنا ، لا لنتوسده وننام عليه ، كما يقول الاوروبيون ، ولكن لنأخذه منطلقا نعتز به ، ونستقى منه الثقة بأنفسنا ، لنستمر الى الامام ، ولنستعيد مكانتنا ونحن فى بدء نهضتنا الجديدة ومنطلق جديد ·

لهذا كله نؤكد دائما وننتهز الفرصة خاصة بمناسبات ملتقيات الفكر الاسلامى لنذكر أنفسنا واخواننا الطلبة ، خاصة النشء الذين عليهم المعول بالنسبة للمستقبل، بهذه الامجاد وما كان يسميه العرب « الايام » ، وللامم أيامها ·

ولهذا فكلما عقد ملتقى الفكر الاسلامى فى مكان ما كان لـه دور فى تاريخ هذه البلاد ، وفى تاريخ الامة الاسلامية ، وفى تاريخ البشرية كلها ، الا وأشدنا به ، الا

---

(5) Henri Garrot : "Histoire générale de l'Algérie".

(6) مولود قاسم نايت بلقاسم : إنية وأصالة ·

وذكرنا على الاقل ببعض فترات تلك الامجاد ٠ وهكذا فعلنا عندما انعقد الملتقى الرابع فى قسنطينة سنة 1390 هـ/1970 م ، عندما زرنا معالم المدينة ، ذكرنا بماسينيسا ، بدولة ماسينيسا ، و بهاح يوغورطا ، وأحمد باى ، وابن باديس ، وزرنا الجامع الاخضر الذى كان يدرس فيه ، وزرنا قبره وقبر الشيخ الحداد وابنه الشيخ عزيز، وفى الخامس فى وهران سنة 1391 هـ/1971 م عندما ذكرنا بمقاومة محمد بن عثمان الكبير ضد الاسبان وطرده اياهم من وهران بعد ثلاثة قرون من الاحتلال ، وبمعركة خنق النطاح ، ودور الطلبة والاساتذة فى ذلك الكفاح ، وفى السادس سنة 1392 هـ/1972 م فى عاصمة الجزائر احتفلنا بالعيد الالفى لتأسيس الجزائر ومليانة والمدية من طرف بولغين بن زيرى سنة 972 ميلادية ، وذكرنا بدور عروج وخير الدين فى تحرير الجزائر بل وتونس وليبيا أيضا من الاحتلال الاسبانى ، وبما قامت به الدولة التى أنشآها ، وهى « دولة الجزائريين » ، سنة 1518 ، من المقاومة والجهاد، وهكذا فعلنا أيضا فى الملتقى السابع سنة 1393 هـ/1973 م فى تيزى وزو عندما ذكرنا بثورة لا لا فاطمة نسومر سنة 1856 ـ 1857 وبمعركة ايشريضن سنة 1871 ، ومررنا بالمكان وتوقفنا لحظات فى موقعها فى صميم جبال جرجرة ٠ وسنة 1394 هـ/1974 م عندما انعقد الملتقى الثامن فى بجاية وذكرنا بمآثر الدولة الحمادية فى بجاية ، وقبل فى قلعة بنى حماد ، وبالدولة الزيرية التى كانت الاصل لها ، وذهبنا الى زيارة تلك الآثار ، وكتب كتاب وصحفيون من مصر وغير مصر مثل أنور الجندى وصبرى أبى المجد وغيرهما بأنهم ما كانوا يدرون ، ما كانوا يعلمون أبدا ، بل وما كانوا يتصورون مجرد التصور أن الجزائر كانت لها أمثال تلك الامجاد ، كانت لها مثل تلك المساهمة فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، وزرنا مثلا قرية صغيرة ، على ستة أميال من بجاية ، هى قرية ملالة التى التقى فيها عبد المؤمن بن على والمهدى بن تومرت ، وكانت المنطلق للدولة الموحدية ٠ اذ كان هناك مؤسسان لها ٠ فالمهدى بن تومرت كان من الناحية الروحية فقط ٠ ولكن المؤسس الحقيقى ، الفعلى ، السياسى ، والعسكرى ، والمدبر ، هو عبد المؤمن بن على ، من جبال ندرومة ، واستمر الامر بعد وفاة المهدى فى يده وأيدى أولاده ٠ وكان المنطلق

ذلك الجامع الصغير فى ملالة على بعد ستة أميال من بجاية بمناسبة لقائهما هناك بعد رجوع احدهما من الحج وفى طريق الآخر الى الحج أيضا · وذكرنا كذلك فى طريقنا الى سطيف عبر خراطة عندما وصلنا الى برج ميرة ما اشتهر بحوادث 8 مايو 1945 ، وعندما وصلنا الى نواحى عين الكبيرة ذكرنا بأن هناك منطقة اسمها بنو عزيز كانت المنطلق للدولة العبيدية الفاطمية · فهناك كان مولد الدولة العبيدية الفاطمية التى انطلقت من هناك فيما بعد الى مسيلة والى القيروان ثم الى مصر وأسست القاهرة ، وأنشات الازهر ، وامتدت الى الشام ، وكان لها شأنها فى التاريخ المغربى الاسلامى ، بل والعالمى أيضا · الدولة الفاطمية ، وما ادراك ما الدولة الفاطمية ! وذكرنا ثورة المقرانى والحداد عندما وصلنا الى صدوق ، ثم مؤتمر الصومام عندما زرنا مكان انعقاده وهو ايفرى ، وراء مدينة أقبو ، وأيضا ذكرنا بزاوية ابن على الشريف التى تعلم فيها المرحوم الشيخ البشير الابراهيمى فى صغره ، وذلك عندما مررنا بها فى شلاطه بجنب أقبو أيضا فى طريقنا الى ايفرى · وكان نفس الشىء بمناسبة انعقاد الملتقى التاسع فى تلمسان سنة 1395 هـ/1975 م ، عندما ذكرنا بدولة بنى عبد الواد وبنى زيان وما أتت به من فكر وحضارة فى المجالات المختلفة أيام ايغمراسن بن زيان ، وأبى سعيد عثمان ، وأبى حمو الثانى ، وما تركوه من علم وفن ، مما أشاد به المؤرخون وعلماء الاجتماع المحدثون ، اذ بدأوا الآن يكتبون بموضوعية وبنزاهة علمية عن تلك الفترة الرائعة من فترات تاريخنا · وكذلك فعلنا عندما انعقد الملتقى العاشر سنة 1396 هـ 1976 م فى عنابة فذكرنا بأنها كانت ذات يوم عاصمة لبنى زيرى ، وانشدنا مجدها ودورها فى العلم والعمران ، وكان الامر كذلك منذ أسابيع فى ورجلان عندما أشدنا أيضا بالعاصمة الثانية للدولة الرستمية سدراتة ـ ورجلان ، بعد زوال تيهرت ، وبما قامت به هذه الدولة ، وتعجب هناك أوروبيون من الغرب ، ومن الشرق ، ومن أمريكا ، واستراليا ، واليابان ، وعلماء مسلمون من أنحاء العالم بما شاهدوه من بعض الآثار القليلة النادرة التى بقيت والتى عرضت فى الولاية وفى المتحف هناك ، الشىء القليل من الكثير الذى ننقب عنه بعد ونستخرجه حاليا ، والاعمال ان شاء الله ستشملها ، والحفريات الآن جارية فى قلعة بنى حماد ، أظن ، أو ستبدأ قريبا ان شاء الله ، فى تيهرت (تيارت) بالنسبة للمرحلة الاولى لبنى رستم · وستجرى ان شاء

الله كذلك هذه الحفريات فى تلمسان لاستخراج ما بقى من آثار حضارة بنى زيان ، وستنطلق ان شاء الله لتشمل سدراتة وورجلان وما حواليهما ، وفى بجاية ٠٠٠ الخ ٠

هذا كله سيعزز فى شبابنا الثقة بنفسه ، وحضارته ، وبأمجاده ، وبما قاموا به فى اطار الحضارة الفكرية الاسلاميه ، وفى اطار الحضارة البشرية أيضا ٠ وعندما تسمعون ان هناك علماء متخصصين فى جامعتى فرصوفيا وكراكوفيا ، متخصصين الآن ، معاصرين ، موجودين ٠ مثل لفيتسكى ، ومثل دومبروفسكى ، وآخرين فى بولونيا اليوم ، وفى ألمانيا ، وسويسرا ، مثل فان برشيم ، وآخرين كثيرين فى بلدان مختلفة ، تتأكدون وتزداد ثقتكم بماضيكم ، وبأمجادكم ، وأمجادنا ، بأمجاد بلادنا ، بما قامت به بلادنا فى اطار الحضارة العربية الاسلامية ، وفى اطار الفكر الاسلامى ، والحضارة الاسلامية ، والفكر البشرى ، والحضارة الانسانية ٠

لاننا كثيرا ما ظلمنا حتى من اخواننا ، حتى من أشقائنا ، وظلم ذوى القربى ، كما يقول الشاعر العربى القديم ، أشد مضاضة ٠٠٠

كانوا ادعوا ولا يزالوا يدعون من حين الى آخر أن الجزائر لم تسهم بشىء ، وأنها كانت ربيبة فقط ، عاشت على الفتات ٠ وكانت طفيلية ، وكانت تقتات من آثار الآخرين ٠ ولم تأت بشىء ، ولم نقدم شيئا ٠

هذا بعض ما بدا لنا ، والشىء الكثير لا يزال فى الأتربة ٠ وهذا لوحده يؤكد لنا ويعزز فينا هذه الثقة ، ويبرز لابنائنا ما قام به أسلافنا ، ويكذب تلك الدعايات التى تأتى من حين لآخر والتى تعارض الحقيقة ٠ وتعارض بطون التاريخ ، وتعارض حتى ما يكتبه بعض أبناء تلك البلدان التى تزور التاريخ ، وتحرف الوقائع ٠

هذا هو معنى الاشادة بهذه القيم ٠ هذا مغزى الاحتفال بما يسميه العرب حتى فى الجاهلية «أيام العرب» ، وما يسمى اليوم بالاحتفالات بالمناسبات الكبرى فى تاريخ الامم ٠ ان الامم بماضيها ، الامم بحاضرها ، وبمستقبلها ، واذا كانت تجهل ماضيها ، تفقد الثقة فى حاضرها ، ولا يمكن أن تنطلق فى مستقبلها ، وتبقى دائما معقدة ٠

ونحن عندما نرى بلدانا ليس لها ماض ، ليس لها مجد ، بل هى وليدة فى التاريخ ، جديدة ، ومع ذلك تحاول ان تثبت أنه كان لها هذا أو ذاك فى الماضى ، أو ان ما ادعى فى الماضى انه اكتشف فى هذا البلد أو ذاك ليس صحيحا ، وانما الصحيح هو ما أتى به هذا البلد الجديد الذى هو ربيب فى التاريخ ، والذى ليس له ماض ، اذا كانت هذه البلدان تدعى هذا ، وتحاول هذه المحاولات لتوجد لنفسها ماضيا ، لتخلق لنفسها مجدا تليدا ، فكيف بنا ونحن الذين لنا ماض عريق ، والذين لنا قدم وساق فى تاريخ البشرية ، فى تاريخ الحضارة ، وفى تاريخ الفكر الاسلامى ، وفى تاريخ الفكر الانسانى عموما ؟

هذا كله يجعلنا نؤكد باستمرار ـ ولا نمل من هذا التأكيد ـ على ضرورة اعتبار ، وتقديس ، وتكريس هذه الفترات الذهبية من تاريخنا ، وحفر الأتربة لاستخراج هذه الكنوز من أمجادنا ٠

وينبغى أن نعترف بأن هناك مجهودات لا بأس بها ، مجهودات تشكر وتحمد لاصحابها ، فى المدة الاخيرة ، فزيادة على الجهود المتواضعة التى تقوم بها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، نجد أن وزارة الاعلام والثقافة تقوم بجهود كبيرة بالحفريات التى ذكرتها فى قلعة بنى حماد ، وفى تيهرت ، وان شاء الله غدا فى سدراتة ، وفى ورجلان ٠ وفى قسنطنة ، وفى بجاية ، وفى تلمسان ، وجميع أنحاء البلاد التى تزخر بهذه الكنوز ٠

ونجد كذلك كتبا تصدر عن فترات من تاريخنا ، عن الرستميين ، وعن الحماديين ، وعن الموحدين ، والزيانيين، من وزارة الاعلام والثقافة، ونجد أيضا الرئاسة قد أنشأت قسما خاصا تابعا لها هو مركز الدراسات التاريخية الذى بدأ ينتج ، وله نشرية ، وله تشجيع ، وله بعثات يبعثها الى الخارج للتنقيب لاستعادة مراجعنا واسترجاع كنوزنا ، ومصادرنا المنشورة ، المبعثرة فى الخارج ، المبثوثة فى مكتبات العالم ، وفى متاحف العالم ٠ ونجد كذلك منذ أيام فقط وزارة قدماء المجاهدين قد انشأت متحفا جديدا أيضا هو مركز الاعلام الوثائقى ، للاشادة على الاقل بالفترة الاخيرة من كفاحنا التحريرى ٠

ينبغي ان يكون هذا العمل كله متواصلا ، وينبغي ان تنضاف اليه جهود شخصية ، جهود منظمة ، للبحث عن المخطوطات التى تندثر فى الاتربة بدعوى البركة ، وبدعوى السرية ، وبدعوى كذا · ينبغى أن تخرج الى الوجود ، ينبغى أن تنشر ، وتـوزع ، وينبغى أن تبرز الى النور ، لتعزز هذا التراث ، ولتعزز الثقة فى أبنائنا بأن بـلادنا لها مجد ، وبأن أمتنا لها ماض ·

هذا هو القصد من الاحتفال ، هذا هو معنى اهتمام الامم بأيامها · هذا هو مغزى احتفال الامم بأيامها ، وبأمجادها ، وبالعصور الذهبية من تاريخها · وهذا لا يمنـع طبعا من دراسة الفترات الداكنة ، من الفترات القاتمة ، لاستخلاص الدروس منها · وكل أمة لها جانبان ، وكل أمة لها ماض مجيد ، ولها كذلك أيام أخرى تستخلص منها الدروس ، وتستخرج منها العبر ، لتفادى أخطاء الماضى فى المستقبل ، «والانسان خطاء» كما يقول الحديث الشريف ·

ونرجو ان شاء الله ان تكـون هذه البادرة التى اتخذتها وهران قـدوة لبلديات أخـرى ، ولدوائر أخرى ، ولولايات أخـرى ، للاحتفال بهـذه المناسبات الكبـرى فى تاريخنا المجيد الذى يجمعنا والامة الاسلامية كلها فى العالم ، وكذلك بالمناسبات الوطنية ، بالامجاد الوطنية ، بالآثار الوطنية ، بالتاريخ الوطنى العريق على مختلف مراحله العديدة ·

وبهذا فقط نكون قد عززنا فى أنفسنا الثقة بماضينا ، ووضحنا لاجيالنا المنطلق المعنوى بهذه الشحنة المعنـوية ، ونكون قـد كذبنا الدعايات السخيفة ، الدعايات المنسقة التى تصدر من حين لآخر هنا أو هناك ، وينبغى أن نقوم بخطى مضاعفة لتدارك ما فاتنا فى عصور الجمود ، وعهود الخمود ، وما تلاها أيام الاستعمار ، لنكون جديرين بأسلافنا ، ونكون ، كما يقول المثل القديم : خير خلف لخير سلف ، ولتفخر بنا الاجيال المقبلـــة ·

وشكرا لكم جميعا ، والسلام عليكم ورحمة الله ·

البلابل الرستمية

نبذة مختصرة عن تاريخ تاسيس هذه الفرقة ـ والغاية من تاسيسها ومسؤوليها ـ ومقرها وعنوانها ٠

ان المجموعة الصوتية المسماة البلابل الرستمية هى فرقة فنية دينية مداحة بالالحان الشجية والانغام المطربة تجمع أعضاء من مختلف قرى وادى ميزاب السبع ـ غارداية بنى يزقن ـ مليكه ـ بنوره ـ العطف ـ بريان ـ القرارة ٠

هم شباب استجابوا لنداء الواجب فانضموا فى فرقة فنية طاهرة حتى يخلدوا تلك القيم الاخلاقية بين المواطنين الذين أبت أصالتهم أن يرضوا عنها بديــلا فى مناسبات أفراحهم ٠ هم شباب تصدوا لحمل أعباء الوطن بالمحافظة على هذا التراث القيم وذلــك فى جوقة فنية ملؤها الطرب البرىء من كل ما يشوبها ٠ واختارت لنفسها اسما ذا بعد تاريخى ومسحة جمالية ألا وهو « البلابل الرستمية » ٠ حيث تأسست فى آخــر مــاى سنة 1975 ويرأسها صاحب الفكرة فى تأسيسها السيد : عمر بن محمد فخار ٠

غرضها الاساسى والغاية من تأسيسها :

1 ـ المساهمة فى بعث النشاط الفــنى الكلاسيكى الجزائــرى الاسلامى وترقيته ما بين الفنون العربية والاسلامية ٠

2 ـ احياء التراث الفنى المحلى والمحافظة عليه ٠

3 ـ تطويره وتهذيبه فى نطاق اطاره الخاص ٠

4 ـ العمل على ازدهاره ونشره ٠

5 ـ ضم هواته فى فرقة واحدة منظمة ٠

6 ـ تنمية المواهب الفنية في أعضائها وتكوينها وابرازها ٠

لتراثها الفنى طابع واطار خاص يتمثل فى ٠ المدائح والاذكار والابتهالات والاناشيد « الدينية ـ الوطنية ـ الطبيعية والاجتماعية » والموشحات العربية ٠

وهذه الفرقة مستقلة بذاتها وبنظمها يقوم بنشاطها شباب ـ كما أسلفت ـ ومــن مختلف الطبقات : معلمين وعمال وطلبة ٠ ربطت بينهم أواصر المحبــة والصفا تحت اشراف ادارة منها وافق عليها أعضاؤها ، والذين أسهموا فى تأسيسها وفى بعث نشاطها وسائرين بها الى الامام قدما ٠



فرقة البلابل الرستمية فى قاعة المغرب ٠

دور جمال الدين الافغـــانى في يقظـة الشرق ونهضة المسلمين

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
الجزائـر



جمـــال الدين الافغـــانى

ان الحديث عن جمال الدين الافغانى مـن مختلف جوانب حياته ، يتطلب عدة مجلدات، وقد خصص بالفعل بمئات التآليف ، ولا زال محــل اهتمـام الباحثين ، وموضوع دراساتهم ، وانى استهل هذه المحاضرة ببيت شعر للمتنبى سبق لبعض مترجميه افتتـــاح دراسته بذكرها وهى :

يقولـون لى مـا أنـت فى كـل بلـدة
وما تبتـغى : ما ابتـغى جـل ان يسمى

فقال المترجم فى تعليقه على هذا البيت : « لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى ، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه الى التنقل فى شتى الممالك القاصية ، لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجـــة

فى الوقت الذى ألقى فيه الاستاذ المهدى البوعبدلى هذه المحاضرة ، يوم 24 ربيع الاول I397 I4 مارس I977 ، بمناسبة الذكرى الثمانين لوفاة الامام جمال الدين الافغانى ، ألقـى الاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، محاضرة فى المهرجان الدولى الذى عقد من I9 ربيع الاول I397 الى 25 منه ـ I5/9 مارس I977 ـ فى كابول، عاصمة افغانستان بنفس التاريخ ، وفى نفس الموضوع ، وسننشرها فى عـدد قـادم ان شاء الله .

والانتعاش ، بل ليقيم فى كل أرض ثورة ، ويشعل فى كل مملكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية ، ويقيم على انقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال ، وان رجلا واحدا يمكنه ان يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية ، لجدير ان يكون رنان الصوت ، طائر الصيت » اهـ • (1)

وانى سأتعرض فى هذه المحاضرة لنشأة جمال الدين ، ثم مراحل حياته فى البلدان التى اقام فيها ، وطبع كل واحدة منها بما خلفه فيها من آثار ، سواء فى الميـــدان العقائدى أو السياسى ، ثم اذكر لقطات من انطباعـــات بعض مترجميه المشهورين بالنزاهة والاطلاع على الخبايا ، وتقييم الرجال ، والخص ما أمكن من النقاط البارزة فى ترجمة حياته ، وأجنب المستمعين الدخول فى التفاصيل •

نشــأتــه وشخصيتــه :

هو جمال الدين بن السيد صفتر الافغانى ، ينحدر من سلالة على الترمـذى ، المحدث الشهير ، الذى لا زال تأليفه يحمل اسمه وهو « سنن الترمذى » ، والترمذى هذا يرتقى نسبه الى سيدنا الحسين بن على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، كما جزم بذلك الشيخ محمد عبده المترجم الاول لاستاذه جمال الدين •

ولد جمال الدين سنة 1254 هـ الموافقة لسنة 1839 م • فى قرية « أسعد اباد » القريبة من همذان التابعة لبلاد فارس ، وهو افغاني لا فارسي ، وانتقل بانتقال والده كما نذكر ذلك فى موضعه •

كانت أسرة جمال الدين تتوارث منزلة علية فى قلوب الافغانيين ، ومن ذلك انها كانت لها السيادة على جزء من الاراضى الافغانية تستقل بالحكم فيه ، ومركز العشيرة كان فى كنر (2) من أعمال كابل • (3)

---

(1) محمد رجب البيومى كتاب علماء فى وجه الطغيان (العدد 55) مطابع الدار القومية بمصر •

(2) قال ياقوت فى معجم البلدان كنر بالكسر وتشديد ثانيه وفتحه وآخره راء •

(3) وقال كابل بضم الباء الموحدة (معجم البلدان) •

وقد فقدت العشيرة هذه الامارة فى عهد والـــد جمال الدين ، وكان الامير الذى استلب من الاسرة امارتها ، نقل أفرادها الى مدينة كابل ، ومن جملة المنقولين والـد جمال الدين وأعمامه ، وفى السنة الثامنة من عمره ، أجلس للتعليم على الطريقة المتبعة فى البلاد الاسلامية اذ ذاك ، وهى لا تختلف كثيرا عن بعضها ، وقد انهى تعلمه فى سن مبكرة نظرا لاستعداده الفطرى ، وقريحته الوقادة وشهرته بالجد ، والاجتهاد ٠ منذ نعومة اظفاره ، وبمجرد اتمامه لمعلوماته فارق بلده لاول مرة ٠ لقضاء فريضة الحج ، وكان ذلك فى سنة 1272 هـ 1856 ٠ وبعد ادائه فريضة الحج رجع الى مسقط رأسه فقلده والى البلاد دوسن محمد خان خطة فى الحكم ، وكان دوسن هذا هــو الذى استلب من الاسرة امارتها ٠ ونقل أفرادها الى كابل كما تقدم لنا ذلك ٠ وقعت حروب بين دوسن هذا ، وبعض أقاربه كان واليا على هراة ، وكان ذلك سنة 1280 هـ 1863 م فمات دوسن اثناء الحصار وتولى ولى عهده ، ووقعت أحداث بين أفراد الاسرة فتــولى بعضهم ، وكان صديقا حميما لجمال الدين ، فعينه رئيس وزرائه ثم هزم ذلك الصديق فى حروبه ، واشتعلت نار الفتن ، فكانت تلك أسباب مغادرة جمال الدين بـلاده ، وذلك سنة 1285 هـ 1869 م ٠ وكان أول بلد القى فيه عصا التسيار ، بـلاد الهند ، ورغم ان حكومة الهند تلقته بحفاوة واكرام ، الا انها اشعرته انه غير مرغوب فى طول اقامته ، اذ حالت بينه وبين علماء البلاد ، ولم تأذن الا للقليل منهم بالاتصال به ، ولهذا كانت اقامته بالهند لم تزد على شهر واحد ، وقد ودعته حكومة الهند بنفس التكريم الذى تلقته به عند وروده عليها ٠ ومن ذلك انها سخرت لـه الباخرة التى أقلته الى قنال السويس على نفقتها ، فجاء الى مصر واقام فيها نحو الاربعين يوما ، كان يتردد فيها على الازهر ، ويجتمع بطلبته ، ولم تطل اقامته بمصر أيضا ، حيث مكث فيها حوالى أربعين يوما ، ثم انتقل الى الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، وبعد وصوله باسابيع قليلة اجتمع بالصدر الاعظم على باشا ، الذى تلقاه بمزيد من الحفاوة والتبجيل ، وصارا متلازمين ، وبعد اقامته حوالى ستة أشهر ، عين عضوا فى مجلس المعارف ، فقام بمهمته أحسن قيام ٠ وكان كثيرا ما يقترح ادخال بعض الاصلاحات لتعميم التعليم ، فيعارضه بعض زملائه ، الذى كان على رأسهم شيخ الاسلام حسن فهمى افندى ، وعند حلـول

شهر رمضان سنة 1287 هـ 1870 م طلب مدير « دار الفنون » تحسين افندى من السيد جمال الدين ان يلقى محاضرة « بدار الفنون » موضوعها الترغيب فى التصنيع ، فاعتذر لضعف معرفته باللغة التركية ، فلم يقبل عذره ، فحينئذ ، هيأ خطابه كتابة ، وقدمه قبل القائه الى وزير المعارف ، صفوة باشا ، والى الحاكم العسكرى على شروانى زادة ، والى منيف باشا ، ناظر المعارف ، فاستحسنه كلهم · فمن هذه الاحتياطات كلها تبين ، ان جمال الدين ، كان على حذر من مكائد خصومه · وكان اتصاله بالجماهير ومخاطبته اياهم ، أول فرصة يمكنهم استغلالها ضده ، وهذا ما وقع بالفعل ، فانهم قولوه ما لم يقله ، وأولوا كلامه فاتهموه بالزندقة والزيغ ، وهذه التهم هى التى كانوا يروجونها عليه خفية ، فلما سنحت لهم الفرصة اتهموه بانه فى محاضرته «بدار الفنون» زعم ان النبوة صنعة ، حيث ذكرها فى خطاب يتعلق بالصناعة ، ولم ينتظر شيخ الاسلام رد فعل المحاضر جمال الدين ، حتى فاجأه بالايعاز الى خطاب المساجد ، ووعاظها ، باثارة هذه التهمة الملفقة فى خطبهم المنبرية ، ودروس الوعظ ، والاحتجاج على صاحبها بالتفنيد والتنديد ، فعندئذ طلب جمال الدين ان يمكن من الدفاع عن نفسه ، ليثبت على رؤوس الملأ بطلان ما رمى به ، وذلك فى مناظرة بينه وبين شيخ الاسلام ، وكان جمال الدين لا يلين فى مثل هذه المواقف ورغم موقف أهل الحل والعقد الذين حضر جلهم للمحاضرة ، بعد ان اطلعوا عليها قبل القائها ، ونصحوه بالتغاضى ، وعدم الالتفات الى كيد خصومه ، الىّ ان يهدأ الرأى العام ، فامتنع واصر فى الحاحه على المناظرة · ولما لم يجب الى مرغوبه ، غادر الاستانة مأسوفا عليه من النخبة التى كانت تقدر مواهبه وعبقريته وشجاعته الادبية النادرة المثال · وكانت وجهته مصر ·

رجوعه الى مصر للمرة الثانية :

فارق جمال الدين الاستانة فى وجهته الى مصر فى أول محرم 1288 هـ 1871 م · وكان قصده مجرد الاستجمام · وفى مصر اجتمع برئيس الدوله مصطفى رياض باشا فاستماله على الاقامة ورغبه فيها ، فاجرت عليه

الحكومة المصرية مرتبا شهريا ، قدره ألف قرش مصرى مجانا ، فلازم بيته التى صارت محط رحال طلبة العلم ، ونخبة المفكرين المصريين ، وكان يتردد على الازهر أيام الجمعة ولم يؤثر عنه انه انتصب يوما ما فى حلقة من حلقات الدروس ، جريا على عادة كثير من العلماء الواردين على مصر ، بل كان يلقى دروسه فى بيته ، وذلك كلـه محافظة على عدم المس من كرامة مسيريه (الازهر) واتقاء جرح عواطف فقهاء البلاد المحافظين ومع كل هذه التحفظات ثار عليه فقهاء البلاد الذين صبوا عليه جام غضبهم ، واتهموه بما اتهمه به شيخ الاسلام بالاستانة ، أى الزندقة والالحاد ، ولنترك الكلمة لتلميذه الذى عاش معه تلك الفترة ، وهو الاستاذ محمد عبده الذى خصص له ترجمة قـال فيها مشيرا الى موقف علماء مصر منه ما يلى : « هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوه سبيلا للطعن فيه من قراءته بعض الكتب الفلسفية اخذا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها ، على ان القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول ، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ ٠

اما الثابتون فى ايمانهم فلهم النظر فى علوم الاولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين ، فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة فى دينهم ، وقوة فى يقينهم ، ولنا فى أئمـة الملة الاسلامية ألف حجة، تقوم على ما نقول، ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى هذا الرجل ، واذاعوا ذلك بين العامة ، ثم ايدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه ، فيسمعون مالا يفهمون ، ثم يحرفون فى النقل عنه ، ولا يشعرون ، غير ان هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفـوس العقلاء العارفين بحاله ، ولم يزل شأنه فى ارتفاع ، والقلوب عليه فى اجتماع ، الى ان تـولى خديوية مصر محمد توفيق باشا ٠ وكان السيد مـن المؤيدين لمقاصده ، الا ان بعض المفسدين ومنهم مستر فيقيان قنصل انجلترا العام سعى فيه لدى الخديوى ، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم انه برىء منه حتى غير قلب الخديوى عليه ، فأصدر امره باخراجه من القطر المصرى ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة 1296 هـ سبتمبر 1871 م واقام بحيدراباد ٠٠٠ الخ » اهـ ٠

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده فى دراسته الخاصة التى نشرتها دار الهلال تحت عنوان « الثائر الاسلامى جمال الدين الافغانى » رمضان 1393 أكتوبر 1973 عدد 274٠

وقبل ان نواصل حديثنا عن حياة جمال الدين نقف وقفة قصيرة لمزيد من البيان والتوضيح عن حيـاة جمال الدين فى مصر ، التى كانت منطلقا لتعاليمه فى البـلاد الاسلامية بصفة عامة ، وفى البلاد العربية بصفة خاصة ٠ كما يظهر لنا من هذا البيان ان الدعوة الى دراسة الكتب الفلسفية ، وتحريض جمال الدين تلامذته على مزيد من الاهتمام بها ، ليست هى التى أوغرت صدر الخديوى محمد توفيق ، أو وشايات قنصل انكلترا العام ، الذى تسبب فى اصدار الامر باخراجه من مصر التى فارقها للابد سنة 1296 هـ 1871 م ٠ بل الذى أوغر صدورهم عليه ، نشاطاته السياسية ، ومن ذلك ما ذكره صاحب كتاب « علماء فى وجه الطغيان » الذى قال فى ترجمة جمال الدين وخروجه من مصر مبعدا ٠ قال « لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ ، وقد زارها مرتين ، فعرف وجوهها واحوالها ، واتصل بأزهرها الاسلامى ، ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ولم تكن الاحوال فى مصر باحسن منها فى الهند فقد استدان اسماعيل ، وبالغ فى القرض والتبذير ، حتى جر الاستعمار الى وطنه ، وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع ، فاخذ يفتح العيون على ما يجرى فى البلاد من أهوال ٠ ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكام ، وبرامجه فى الاصلاح ، ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى ، ويفضحوا الطغيان الخارجى ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة ، ويحد من الفردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان ، وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة وجاء ولده توفيق ، وكان ذا صلة بجمال الدين ، فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره ، وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه فى الحرية والاستقلال ، وهما منه ، ان الرجل قـد يستجيب وينسحب دون ضوضاء ، وكان ان هيأ اجتماعا عاجلا فى القصر الخديوى ، بدأه توفيق فقال مداهنا ، مراوغا : انى أحب كل خـير للمصريين ويسرنى ان أرى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف ، ان أكثر الشعب جاهل ، لا يصلـح ان يلقى عليـه مـا تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد فى تهلكة ٠

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ، ثم رفع رأسه ليقول فى اعتداد « ليسمح لى سمو أمير البلاد ان أقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العـــالم والعاقل · فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، وأسرعتم فى اشراك الامة فى حكم البلاد ، عن طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخابات نواب من الامة ، تسن القوانين ، وتنفذها باسمكم وارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم ، وأدوم لسلطانكم » وانتهى اللقاء ، بعد ان لمس توفيق خيبة مسعاه ، ثم علق صاحب المقال على هذه المقابلة بقوله « لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة ان ايامه فى مصر محدودة ، فانبعث يشعل اللهب ، بخطبه وأفكاره ، وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فانشأ محفلا ماسونيا جديدا ، بلغ اعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو ، من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ، وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للاعمال المختلفة فشعبة للحقانية (أى العـــدالة)وأخرى للمالية · وثالثة للاشغال ، ورابعة للجهادية (أى للجيش) وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها ومصلحتها ، وتعرف ما يقع من الظلم ، ووجوه الاصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص ، وتبلغه رغباتها فى أسلوب حازم صريح ، فكان لذلك هزة « فى الاندية والمجتمعات » (4) اهـ · ثم ختم دراسته بالظروف التى اعقبت نشاطات جمال الدين بمصر فقال « وصاحب ثورة كهذه الثورة ، لابد ان يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجى ، والطغيان الداخلى على ابعاده ، فغادر مصر ، ولكن بعد ان اعد الموقد وأشعل الثقاب » (4) اهـ ·

وهذه آراء معظم مترجمى جمال الدين عن مدة اقامته فى مصر ، تلك الاقامة التى قال عنها بعض مترجميه « ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين ، مثل تأثيره فى مصر : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطنى فى هذه البلاد » (5) ·

---

(4) عن كتاب زعماء الاصلاح نقلا من محمد المخزومى باشا ·

(5) «الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل» لمحمد صبرى باشا ·

ومن ذلك ان جل مترجميه اعترفوا ان الثورة العرابية المصرية من اثر دعوته ، اذ كان لكلامه اثر عميق فى ايقاظ الناس ، وتنبيههم الى حقوقهم ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السلطان ، واخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم ، وحقه المطلق فى التصرف فى شؤون الرعية والذى استدل عليه كثير من مؤرخى الثورة العرابية هـى قوله « وليس هناك شك فى ان لجمال الدين يدا فى الحركة العرابية ومن المحقق ان المبدأ الوطنى الذى سيطر على تلك الحركة من غرسه » وايد نظريته بما كتبه الامير شكيب ارسلان فى الموضوع حين قال « وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس الاجنبية ، شأن تلك الدسائس عـلى كل نهضة تحدث فى الشرق ، أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول ان تتمزق حجب الغباوة التى هى اصدق عوامل الاستعمار » (6) ·

كما كان لخطبه على قلتها فى التجمعات الجماهيرية تأثيرها فى الثورة . سجلت خطبة قالها فى الاسكندرية قبل خلع الخديوى اسماعيل بمدة قليلة قال فيها مخاطبا الجماهير « انت أيها الفلاح المسكين ، تشق قلب الارض لتستنبت ما تسد به الرمق ، وتقوم باود العيال ، فلماذا لا تشق قلـب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلـب الذين يأكلون ثمرة اتعابك » · (7)

ولنواصل حديثنا عن مراحل حيـاة المترجم بعـد مغادرته مصر فانـه قصـد حيدر اباد بالهند الا انه بمجرد اندلاع ثورة عرابى نقل من حيدر اباد الى كلكوته التى الزم بالاقامة الاجبارية فيها ، ثم اذن له فى الذهاب الى أوروبا ، فغادر الهند ومر فى طريقه الى باريس على لندن ، واختار الاقامة بباريس ، لما كانت تتمتع به من سمعـة اكتسبتها من ثورتها المشهورة ، فأنشأ فيها جريدة « العروة الوثقى » التى اسنـد رياسة تحريرها لتلميذه ـ الذى لحق به فيها ـ وهو الشيخ محمد عبده ، وقد تمكن من اصدار ثمانية عشر عددا منها ثم تعرضت طريقه صعوبات ، حيث منعت الجريدة من الدخول الى الهند ، وصودر كثير من اعدادها فى بقية البلدان التى كانت تخضـع

(6) حاضر العالم الاسلامى شكيب ارسلان ج 2 ص : 289 ـ 303 ·
(7) « حوليات مصر السياسية » أحمد شفيق باشا ·

للنفوذ البريطانى مباشرة أو بواسطة فخاب امله فى بلاد الحرية وغادرها سنة 1303 هـ 1885 م ·

اهتم كثير من المؤرخين بترجمة مراحل حياة جمال الدين الافغانى ، وهذه التراجم وان اختلفت فى بعض تفاصيلها أو فى بعض المؤثرات عليها · فكادت ان تتفق فى مجموعها على صدق نية الرجل ، وشجاعته المثالية ، ونزاهته · وقبـــل ان نتعرض لنماذج من انطباعات مترجميه نذكر انطباعات بعض المعاصرين منهم على طريقة اللف والنشر الغير المرتب ، أى نبدأ بآخر مترجميه الذى قال فى ختام ترجمته اياه « مات جمـــال الدين فى القسطنطينية فى أواخر القـــرن التاسع عشر مصـــابا بالسرطان فى لسانه ، ولهجت الالسن بعد ذلك انه ذهب ضحية خصومه كما هى العادة فى الشرق ، وهذه شائعة لا أثبتها ولا انفيها ·

ولكن ماذا كانت حياة جمال الدين الذى كان من عظماء العالم ؟

انه كان كسقراط فى حكمته وقدرته على تكوين الرجال ·

وكان كابن خلدون فى علمه واتساع دائرة معارفه ·

وكان كديموستين فى فصاحته وخطبه لقد عاش مضطهدا مطاردا ، ولم يتمكن فى واحدة من الممالك الاسلامية الشرقية التى عاش فيها واحب خيرها ، وخدم شعبها ، من ان يعيش عيشة راضية ، أو يتمتع بحياة هادية ، ولم يؤسس أسرة ، ولم يبن بيتـــا ، ولم يدخر مالا ، ولم يتول منصبا ، بل عاش عيشة المفاليك المشردين ، يبيت ليلتـــه ولا يدرى اين يكون صباحه · ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذى ايقظ الشرق مـــن رقدته التى نامها سبعة قرون ، منذ اجتاحه المغول من الشرق ، والاوربيون من الغرب ، هو الرجل الذى انهض الشرق بعد ان يئس كل من عداه من ايقاظه » اهـ (8) ·

وقال عنه الكاتب الفرنسى ارنست رنان (9) Ernest Renon الفيلسوف الشهير قال « كنت اتحدث اليه ، فكان يخيل الى من حرية فكره ونبالة طبعه ، واخلاص

---

(8) نشرته جريدة « Les Débats » الباريسية فى عددها المؤرخ فى 19 ماى 1883 نقله عنه د. عثمان أمين فى تأليفه « رائد الفكر المصرى محمد عبده » ص 305 ·

(9) علماء فى وجه الطغيان ، لمحمد رجب البيومى ·

قلبه ، انى أرى وجها لوجه احد معارفى القدماء ، وانى أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحدا من أولائك الاحرار العظام ، الذين مثلوا خلال خمسة قرون ، تقاليد الفكر الانسانى » اهـ ٠

ولنرجع الى مواصلة الحديث عن نماذج من انطباعات بعض المؤرخين الذين ركزنا دراستنا هذه على شهاداتهم وآرائهم اذ كانوا ادرى الناس بترجمته ٠

ومن هؤلاء الامير شكيب (10) ارسلان الذى قال عنه « كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ٠٠٠ فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة فى المسلمين ما قل ان يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوابا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا ، بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع فى سير العالم والامم علما راسخا واكتنه اسرارا خفية ٠٠٠

وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه انما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الاقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين ، الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ، ولا يتبدد أوارها ، وكان يختلف على السنوسى منهاجا ، فجمال الدين انكب على السياسة وشؤونها ، وذلك ـ أى السنوسى ـ على علوم الدين وترقيتها ٠

غير ان السيد جمال الدين الافغانى كان أول مسلم ايقن بخطر السيطرة الغربية المنشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها ، وامتدت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق ، وادرك شؤم المستقبل ، وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ٠ فهب جمال يضحى نفسه ، ويفنى حياته فى سبيل ايقاظ العالم الاسلامى ، وانذاره بسوء العقبى ، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ،

---

(10) نقل د٠ عثمان أمين فى تاليفه « رائد الفكر المصرى محمد عبده » ج I ص 305 ٠

وحسبت له ألف حساب ، فنفته بدعوى انه هائج ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده ، مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم اطلقت سراحه ، فجاء الى مصر حوالى سنة 1880 ، وكان له يد فى الثورة العرابية ، التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة 1882 نفوا جمالا للحال فزايل مصر ، وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان ، حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد ، بطل الجامعة الاسلامية بالمبرة والكرامة ، وقربه منه ، ورفع منزلته فسحر جمال السلطان الداهية ، بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية ، ويغلب ان ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته ، فى سبيل الجامعة الاسلامية ، انما كان على يد جمال الدين الافغانى المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الاعلى سنة 1896 شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الاخير من انفاسه » اهـ كلام شكيب ارسلان . والنموذج الثانى من هذه النماذج ما قاله الكاتب الشهير محمد لطفى جمعة فى تأليفه « حياة الشرق : دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » قال تحت عنوان « الزعماء فى الشرق » .

« لقد ظهر فى الشرق زعماء سياسيون كثيرون ، بل فى كل ناحية من ناحيات الشرق العربى ، وفى مصر خاصة ، ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الافغانى واحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .. الى ان قال « أما جمال الدين الافغانى فكان فى الحقيقة مصلحا عاما للدين والسياسة والاجتماع ، ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه ، ولعله اتخذ الاصلاح الدينى ، والاصلاح الاجتماعى ونشر الفلسفة وسيلة للاصلاح السياسى ، لانه كان يرى ان اصلاح السياسة يصلح كل شىء ، وكان الاصلاح السياسى فى نظره ، ينحصر فى نقطتين : الاولى ، تحرير الشعوب من الحكم الاستبدادى ، أى من ظلم الحكام الشرقيين المطلقين ، الذين كانوا لعهده فى فارس والافغان وتركيا ومصر ، وعندما ظهر لاول عهده ، لم تكن أوروبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم الفظيع ، بل كان الانجليز فى الهند وحدها ، والفرنسيون فى الجزائر ، ونظر بعد ذلك فى تخليص امم الشرق الواقعة تحت حكم

الاجنبى ، وارتأى الخلاص الشعوب الاسلامية مما كانت واقعة فليه لعهده ، تأليف الجامعة الاسلامية تحت رعاية الخليفة ، ولم يكن لعهده رجل يصلح لتولى هذا المنصب سوى السلطان عبد الحميد ٠

لقد لجأ الافغانى أولا الى الملوك انفسهم ، وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية ، وقد نجح فعلا فى اقناع شاه الفرس بضرورة اعطاء الدستور الى شعبه ، وتمكن من قلب الشاه ، وبذل له الاخلاص كله ، وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسى ، بعد ان استمالهم اليه بعقله وعلمه وفصاحته وشخصيته الجذابة ٠ ولما اضطهد وتآمروا ضده ، سافر الى بلاد الهند ، وشعر الانجليز بقوته ونفوذه فنفوه ، فذهب الى الافغان وكانت مملكته تتناهبها المظالم ٠ وهى واقعة تحت السلطة الانجليزية ، لانها خطر على أبواب الهند ، فلم يكن الدور الذى لعبه فيها عظيما ، ولكنه لقحها ، وترك فيها خميرة صالحة كما ترك خميرة فى فارس ، وكما ترك آثاره فى الهند » اهـ ٠

وقبل ان أنهى هذه الدراسة ، نرجع مرة ثانية الى تتبع مراحل حياة جمال الدين بعد خيبة امله فى باريس كما تقدم ، الا ان مدة اقامته فى باريس تركت اثرا محمودا ، فعلاوة على الاعداد التى اصدرها من جريدة العروة الوثقى ، والتى رددت صداها الاوساط الشرقية والغربية ، فانه اغتنم فرصة وجوده بها ، ليرد على بعض الكتاب الاوروبيين ، الذين كانوا يتطاولون على الاسلام ، وكان من بين هؤلاء ارنست رينان Ernest Renon الذى ذكرنا انطباعاته عن جمال الدين ، وقد سبق لجمال الدين عندما كان بحيدر اباد ، ووردت عليه استفتاءات من علماء الهند عن بعض الطوائف ظهرت فيها ، فألف رسالته المشهورة « برسالة الرد على الدهريين » ، غادر باريس تلبية لطلب شاه ايران ، الذى عرض عليه ان يتخذه مستشارا للملكة ، وعندما عرض عليه الاصلاحات المستعجلة التى من بينها أحداث برلمان يختاره الشعب ، ورأى الشاه ان علماء فارس ، ونخبتها التفوا حوله سارع الى التخلص منه ومن اصلاحاته ، فنفاه ورمى به خارج حدود بلاده ، فغادر جمال الدين فارس مكرها ، ورجع مرة أخرى الى الاستانة حيث لقى الحفاوة والتبجيل من الخليفة عبد الحميد ، الذى اعد لسكناه قصرا ملكيا ، وعرض عليه أرقى منصب دينى فى الخلافة ـ مشيخة الاسلام ـ وقد اتفق

مؤرخو تلك الفترة ، ان الخليفة عبد الحميد ، كان يتفق تماما مع جمال الدين فى فكرة الجامعة الاسلامية ، الا ان هناك موانع لم تكن فى الحسبان قضت على آمال الرجلين معا ، فى الجامعة الاسلامية ، التى لقيت حتفها فى مهدها ، لاخبار تطول ، وكيفما كانت أسباب الاطاحة بها ، فان المنتفع الاول ، كان الاستعمار الغربى الذى كانت تشخصه الامبراطورية الانكليزية ، وقد ظهر تأليف اثناء الحرب العالمية الاولى ، وبالضبط سنة 1917 م للكاتب الايطالى الشهير فى الاوساط الديبلوماسية وهو الدكتور أنريكو انزباطو Enrico Insabato فى تأليفه « الاسلام وسياسة الحلفاء » الذى عندما تعرض فيه لسلطة الخلافة الاسلامية العثمانية ، وخطرها ، ختم بحثه بهذه الجمل « ·· من حسن الحظ لاوروبا ان « الشبان الاتراك » الذين اطاحوا بالخليفة عبد الحميد اوقفوا مسيرة « الوحدة الاسلامية » ـ الخطيرة على الغرب ـ التى كان يرعاها عبد الحميد وان تصرفهم هذا سواء كان ناشئا عن جهل أو غباوة ، حيث أرادوا استبدال « الوحدة الاسلامية » « بالوحدة التركية » فانهم أبعدوا عن الروح العربية ، وقد تفطنوا ـ بعد ان فات الاوان ـ الى هفوتهم ، وشعروا بانهم اخطأوا المرمى، وذلك عندما أعلن سلطانهم الجهاد اثناء انضمامهم فى الحرب العالمية الاولى الى المانيا القيصرية ، ثم حاولوا الرجوع عن غلطاتهم ، فسبقتهم الاحداث ، اذ انكلترا التى كانت تتبع سير هذه الاحداث عن كثب ، تبنت الحركة العربية وآزرتها (أى الوحدة العربية) ·

والخلاصة ان جمال الدين الافغانى كان من افذاذ قادة الفكر وعظماء الرجال ، ترك بصمات أصابعه فى تاريخ البلاد الاسلامية غربا وشرقا ، حاول الانكليز استمالته بالمال والتاج والسلطنة فاشعرهم وهو بلباسه القومى البسيط ـ اذ كان محافظا على زيه الافغانى قباء وكساء وعمامة عجراء ـ ···

فاشعرهم وهم الذين كانوا يتصورون فيه صورة من كانوا يعرفونهم من الامراء والسلاطين عباد الفروج والبطون والقصور ، بانهم غلطوا ، وترك فى سجلاتهم كلمته التى قالها عنهم « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر اعزل مثلى يسجل عليها وهن

عزيمتها ، وضعف شوكتها ، وقلة عدلها ، وعدم أمنها وانها فى حقيقة حكمها لهـذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » اهـ ٠

ولا غرو ان ساهمنا فى احياء ذكراه لمرور ثمانين سنة على وفاته ، بالمركز الثقافى الاسلامى ، الذى صادف الاحتفالات بذكرى المولد النبوى الشريف ، الذى امتاز فى هذه السنة بمحفل رهيب فى مدينة وهران تحت رئاسة الاخ الوزير مولود قاسم نايت بلقاسم الذى فتح سلسلة محاضرات تحت عنوان « اهتمام الامم بايامها » وامنيتنا ان نعود الى الموضوع فى فرصة أخرى ٠

بيتهوفن (١)



الفنان العبقرى والثورى الاخلاقى

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

حضرات السادة والسيدات

أود في بدء هذه الكلمة أن أشكر صاحب

---

(1) كلمة افتتاح الذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الألماني والعالمي الشهير لودفيغ فان بيتهوفن (26 مارس 1827 _ 26 مارس 1977) التي أقيمت بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر يوم السبت 06 ربيع الثاني 1397 هـ (26.3.1977م)

احياء للذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الالمانى والعالمى الشهير ليد فيغ فان بتهوفن .

احتفلت الجزائر بدورها بهذا العبقرى العظيم فأشرفت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على أمسية ثقافية وموسيقية بقاعة المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة مساء يوم السبت 26 مارس 1977 حضرها كل من السيد مولود قاسم نايت بلقاسم . وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية . وعدد كبير من المهتمين بالموسيقى . نذكر منهم الدكتور بيكر، مدير معهد غوته الالمانى بالجزائر ، وجمهور غفير من المواطنين والاجانب الذى ضاقت به القاعة .

وقد تضمن برنامج الحفل النقاط التالية :

1) الكلمة الافتتاحية للسيد الوزير تحت عنوان : « بيتهوفن الفنان العبقرى والثورى الاخلاقى » .

2) عزف السوناة 2/1 لبيتهوفن وهى الاولى زمانيا . الفها سنة 1795 . وقد أداها الاستاذ فرانز بيتر غوبلز . الاستاذ بالمعهد للموسيقى فى ديتمولد (المانيا الاتحادية) .

3) محاضرة بالفرنسية تحت عنوان : بيتهوفن اليوم للاستاذ نفسه .

4) عزف السوناة رقم III لبيتهوفن وهى الاخيرة زمانيا ألفها سنة 1823 . عزفها على البيانو الاستاذ غوبلز .

5) تعليق بالعربية عن الجانب الفنى لمؤلفات بيتهوفن من طرف الاستاذ سلمان البدعيش (سوريا) ، أستاذ الموسيقى بالمعهد التكنولوجى للاستاذات بابن عكنون (الجزائر) .

السعادة سفير ألمانيا الاتحادية، السيد غيرهارت مولتمان، والسيد الدكتور بيكر، مدير معهد غوته في الجزائر، اللذين بمجرد أن أعلمتهما منذ بضعة أسابيع بقرار الجزائر اقامة الذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الألماني والعالمي الشهير لودفيغ فان بيتهوفن، أعربا لي عن استعدادهما للمساعدة بأي شيء في امكانهما لإقامة هذه الذكرى.

وكان من أحسن الصدف ان اسعفتنا روح بيتهوفن بمجيء الأستاذ فرانتز بيتر غوبلز، الأستاذ بالمعهد العالي للموسيقى في ديتمولد، لإقامة حفلتين موسيقيتين يوم 22 و23 من هذا الشهر في الجزائر، فعرضاه علينا ورحبنا به طبعا شاكرين للجميع.

ولقد سبق للجزائر أن احتفلت يوم 17 ديسمبر 1970 في المسرح الوطني بذكرى مرور قرنين على ميلاد بيتهوفن، وكان لي شرف إلقاء كلمة بتلك المناسبة.

وقد تساءل البعض إذ ذاك: ما مغزى هذا الاحتفال ببيتهوفن... أو غيره؟

وقد أجبت عن هذا التساؤل إذ ذاك، وأشرت إلى هذا فى الكلمة التى ألقيتها بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف أخيرا فى وهران، وقلت إننا نعير الاحتفال بالمناسبات الوطنية، والإسلامية عموما، بل والعالمية، أقصى الاهتمام، لما فيها من الاشادة بقيم وطنية، أو روحية عامة، وأخلاقية، أو ثقافية عالمية، والتذكير بجهود رجال أو نساء كانت فى صالح أمم، ولكن أيضا فى صالح الإنسانية كلها.

إننا نقيم الليلة ذكرى وفاة رجل من أعظم الرجال فى تاريخ البشرية، وممن قد موالها أجل الخدمات، لا فقط بتلك الروائع الفنية الخالدة التى تروح عن النفس، وتسمو بالروح إلى المدارج العليا من الروحانية والمتعة الفكرية، ولكن أيضا بما عبرت عنه من قيم إنسانية عليا هى الفيصل بين الحيوان العاقل وغير العاقل، وإن كانت تجارب

علمية حديثة أثبتت ان كثيرا من ذوات الاربع، بل والحشرات، بل والنباتات، تتذوق الموسيقى العليا وتنتعش بها أكثر من عديد من بني آدم وحواء، أو ذلك الحيوان المسمى بالعاقل، تمييزا له عن بني جنسه في كل شيء آخر غير العقل، على فرض صحة المفروض!

لقد كان بيتهوفن أول من حرر الموسيقى والموسيقاريين من التبعية لأهل القصور من القياصرة والأباطرة، بعد أن كان أصحاب الآلة - كما نقول عنهم في الجزائر - جزء من مستخدمي قصورهم، في العالم كله، لتسليتهم وتمكينهم من التفاخر بتبعيتهم لهم تماما كما كان الشعراء والضحاكون Les bouffons des rois من ضروريات البلاطات في كل من الدول الأوروبية والإسلامية، وخاصة منها الأموية، والعباسية، والأندلسية، وبصفة أخص عند سلوك الطوائف والطويفات، يضحكون هذا على حساب ذاك، ويمدحون هذا

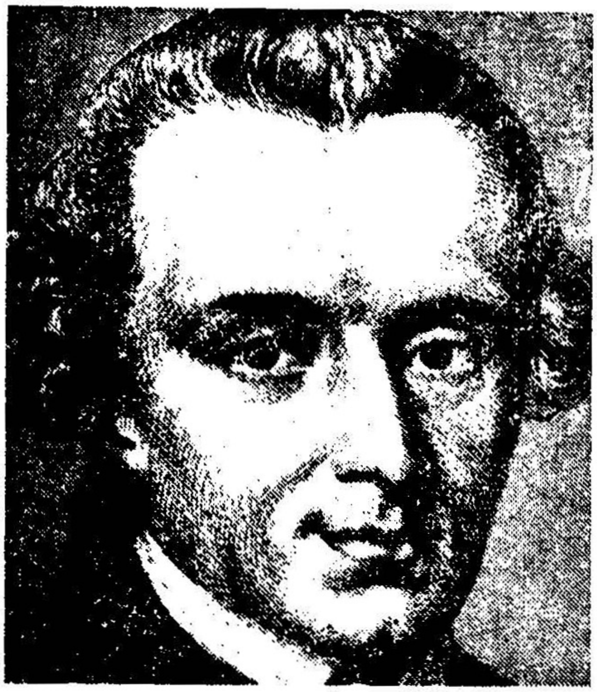
بذم ذاك، وفى كل ذلك يتنقلون من أحدهم إلى الآخر حسب العرض والمكافأة المرتجاة!

فقد كان بيتهوفن أول من حطم تلك الأغلال والقيود، واستقل بنفسه، ورفض عروض أباطرة، وقياصرة، وملوك، وأمراء، فى أن يضمنوا له راتبا قارا مقابل التحاقه بقصورهم، وقال لأمثال نابليون، الجاثم إذ ذاك على فيينا، ولأخيه جيروم بونابارت Jerôme Bonaparte، ملك فيستفاليا فى كاسل Kassel، ولملك بروسيا فى برلين، ولأمراء كثيرين فى فيينا نفسها، أمثال ليخنوفسكى Lichnovski، ولوبكوفسكي Lobkovski، وكينسكى Kinsky، وغيرهم: "إن الأمراء، والملوك، والأباطرة، والقياصرة، وجدوا بالأمس، وموجودون اليوم، وسيوجدون غدا. أما بيتهوفن فهناك واحد فقط!"

قال هذا فى ظروف كان فى بعضها يتضور جوعا، كما كتب، فى يونيو 1923، أى أربع سنين قبل موته،

وهو يؤلف سيمفونيته التاسعة التي ختمها، كما تعلم، بتلك الألحان السماوية على نشيد السرور Ode an die Freude لشيللر، كتب بيتهوفن يقول: "من الأول إلى السادس من يونيو... يالها من تعاسة... إني لم أذق طعامًا منذ ستة أيام!".

كما لم تكن موسيقى بيتهوفن لمجرد إمتاع الأذن، من ذلك النوع المسمى عموما في العصر الحديث: "الفن للفن" L'art pour l'art، بل كانت الفنون في نظره، أو على الأقل موسيقاه هو، تعبيرا عن أفكار سامية، عن مبادئ عليا، عن معان عميقة، كما في "فيدليو" Fidelio التي مجد فيها الوفاء الزوجي، والحرية، والعدالة، وكما في افتتاحية بروميتي، Promethee، أو في السيمفونية الثالثة التي مجد فيها حرية الشعوب، وندد فيها فيما بعد لدى تمزيق إهدائها الى نابليون بالدكتاتورية، ونادى



كنـــط

بالجمهورية في فيينا القيصرية، كما أشاد في مؤلفاته عموما بالقيم الإنسانية العليا التي تجعل من الإنسان الانسان!

وربما ندين لحياته المادية الضنكة تلك، التي تحمّلها دفاعًا عن حريته، بتلك الروائع الخالدة، والانفجارات البركانية الروحية الفريدة، كما كتب شوبنهور مرة يقول: "إن المعاناة التي يصارعها العبقري كثيرا ما كانت منبتا لآثاره الخالدة".

وبيتهوفن هو الذي كان يقول: "إني لا أحسّ بالسَّعادة تغمرني إلا عند ما أتغلّب على الصّعوبة!".

ولقد كان بيتهوفن في تمجيده بسلوكه وموسيقاه هذه القيم العليا متأثرا بالفيلسوف الكبير إيمانويل كنط Kant الذي درس فلسفته

فى جامعة بون، مسقط رأسه، وكان يردد دائما ذلك المبدأ الرائع للفيلسوف العظيم الذى يقول: "أؤمن بالنجوم المتلألئة فى السماء فوقى والقانون الأخلاقى فى ضميرى"(1).

وذلك أن مشاكل البشرية المعذبة هى التى كانت تحركه، ولم يكن يعنى إلا بها، وفى انفجاراته أحيانا أمام الأمراء والارستقراطية العليا كان يقول "ليعمل الانسان الخير، حيثما استطاع، وليحبّ الحرية فوق كل شيء، وليتحاشَ إنكار الحقيقة أبدا، حتى أمام التيجان!"(2).

وكان يردد تمجيده للحرية فى كل مكان، وخاصة أمام أولئك، بشكل نسميه اليوم استفزازيا، كما يشهد بذلك، من بين أمثلة أخرى عديدة،

---

1) "der bestirnte Himmel ueber mir und das moralische Gesetz in mir".

2) " Wohltuen, wo man kann, Freiheit über alles lieben , Wahrheit nie, auch sogar am Throne nicht verleugnen "

قوله لتلميذه ولي عهد النمسا: "إن الحرية والتقدم هما هدف الفن بل والحياة كلها!".

كما قال عند تمزيقه إهداء السيمفونية الثالثة لنابليون، بعد أن كان معجبا به لتحطيمه الملكيات الأوروبية، ثم تتوج نفسه امبراطورا، قال بيتهوفن: "إن هذا لن يختلف عن أي انسان عادى أو صعلوك، وسيدوس ابتداء من الآن بقدميه حقوق الإنسان كلها برجليه، ولن يرى أمامه إلا طموحه، وسيجعل نفسه فوق الجميع، ولن يكون إلا طاغية!".

وأين قال هذا؟ في فيينا القيصرية!.

وقد كان مثال الجد والمثابرة في العمل، لايركن للراحة أبدا، وهو الذي كان يقول: "إن الأعمال في هذه الحياة

كثيرة، ولذا فلا تركن للراحة أبداً!"(1)

ولهذا كله وغيره كان فاغنر الجمهوري، الثوري، الذي سجن من أجل أفكاره وذاق المنفى، والمثابر على العمل والجهد، يردد دائماً:



غوته وهو منحن ونازع قبعته، أمام القيصر وزوجته، وبيتهوفن يواصل سيره، شامخا برأسه، بعد أن ضغط بيده على قبعته مثبتا إياها على رأسه. وبعد أن ابتعد عنهما القيصران قال بيتهوفن لغوته: "هذا أنت غوته؟" فأجابه غوته: "لا تنسى يا صاحبي أنني موظف!". وموظف آخر ينظر مشدوها...

"أؤمن بالله وموتزارت وبيتهوفن!"(2)

وفي آخر هذه الحياة، قبيل موته بقليل، كتب بيتهوفن: "إن عملي قد انتهى!"(3) "إن عملي قد اكتمل".(4)

---

1) " Viel gibt es zu tun auf dieser Erde, raste nicht ! "
2) " Ich glaube an Gott, Mozart und Beethoven " .
3) " Mein Werk ist beendet " .
4) " " " " vollendet " .

وفى مساء 26 مارس 1827، وعواصف الثلج تتهاطل على فيينا، والبرق يضيء ظلماتها، والرعد يهزجد رانها، لفظ بيتهوفن النفس الأخير، وغادر هذا العالم، وشيعت فيينا الشعبية والرسمية كلها جثمانه، وحمل نعشه كبار موسيقيي العالم، تاركا لنا تراثا هائلا أغلب قطعه ليست فقط روائع عالمية فى قمة المتعة الروحية، بل هى أيضا معالم فى طريق الفنانين خاصة، حيثما كانوا، إذن عندنا أيضا، لوضع فنهم فى خدمة القضايا العادلة، والمبادىء السامية، والقيم الأخلاقية العليا، التى تمثل موسيقى بيتهوفن أروع تمجيد لها من بين أعمال الانسان، وهو الذى كان يقول:

"إن الموسيقى هى وحي
أعلى من كل فلسفة،
وأعمق من كل حكمة!
والذى تتفتح له موسيقاى
يتحرر من جميع المحن
التى تثقل كواهل الآخرين!" (1)

والسلام عليكم ورحمه الله.

1) " Musik ist hoehere Offenbarung als alle Weisheit und Philosophie; wem meine Musik sich verstaendlich macht, der muss frei werden von allem Elend, womit sich die Andern schleppen " .

a) Kurt Pahlen : " Musikgeschichte der Welt ".

الجوانب الفنية
فى مؤلفـات بيتهـوفن

سليمان البدعيش (سوريا)
أستاذ الموسيقى بالمعهد التكنولوجى
للاستاذات بابن عكنون (الجزائر)

ما حاولت الحديث مرة عن بيتهوفن الا وشعرت بجو من الرهبة والوهن خوفا من ان اقصر فى ايفاء ذلك العبقرى حقه واشعر دائما اننى لن افيه ذلك الحق . والمهمة تكون اصعب واشق عنـــدما يريد الانسان أن يتحدث عن موسيقى ذلك العبقرى العملاق .

يعتبر بيتهوفــن من الناحيــة الموسيقية جسرا بــين الكلاسيكية والرومانتيكية . وعندما نقول موسيقى (كلاسيكية) نقصد بذلك موسيقى الطبقة الاولى فى المجتمع اذ ان كلمة (كلاسيكية) ترجع فى جذورها الى الكلمة اللاتينية (كلاسيكوس) وهى تعنى الطبقة الممتازة والمترفة فى المجتمع . وانا لا اعتقد ان الموسيقى الكلاسيكية تعنى النوع القديم من الموسيقى بل تعنى ذلك النوع من الانتاج الذى يخلد على الزمن الذى لا يستطيع أن يمسحه بطابع القدم . بل هو ذلك النوع الرائع على مر الايــام متجدد الشباب والحياة مهما تقادم به العهد .

كان على محترفى الموسيقى فى العصر الكلاسيكى أن يكتبوا الالحان لاسيادهــم بالاسلوب الذى يرضى عنه السادة لا الموسيقيون . ولكن بيتهوفن يخالف هذه القاعدة فيما بعد . لقد قال عازف الارغن (كريشيان نيف C. Nefe) مرة لبيتهوفن عندما

(I) ألقاها فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الاحتفال بالذكرى 150 لوفاة بيتهوفن يوم 6 مارس 1977 .

كان طفلا صغيرا : ان الموسيقى الحقيقية التى يكتب لها الخلود انما هى الموسيقى التى تعبر عن نفسية مؤلفها واتجاهه الخاص فى الحياة . وانى اعتقد ان هذا المستوى قد حفر فى ذاكرة ذلك الطفل .

لم تكن قيمة الموسيقيين فى القرن الثامن عشر باحسن من قيمة خدم القصور ولم تكن الموسيقى الا لوحة ترسم مجتمعات النبلاء وعاداتهم دون أن تفصح عن مشاعر الموسيقى أو تعبر عن نفسيته . لقد كان الفنان عبدا لطبقة من حكام الشعب ومستبعديه . وتميزت الموسيقى بطبقيتها .

ولكن تلك القوة السجينة تمردت على السجن والسجان وما لبثت اناشيد الشعب واغاريده ببساطتها وحماسها أن طغت على تلك الانغام الرتيبة الرزينة وهكذا بدأ الفن الطبقى ينهزم أمام الابداع الشعبى امام موسيقى الجماهير وبدأت الآفاق الواسعة تتراءى لاعين الانسان المتحرر وخرج الفنان من القصور والكنائس الى العالم اللامتناهى فوجد فى الطبيعة والشعب مأوى له ومصدرا لالهامه .

وما أن توطدت دعائم النهضة والتحرر حتى بدأ الفنانون يعودون بانظارهم الى الفنون القديمة من شعر أو موسيقى وكلها ترجع فى جذورها الى الرومان والاغريق فأخذوا يغترفون من ينابيعها ويتغنون بأساطير القدماء من اقاصيص حب وسحر ومن هنا دعيت هذه الحركة الجديدة بالرومانتيكية .

جاء بيتهوفن ليحرر الفنان من الاستعباد وليفرض احترامه على كل من حوله . ترك بيتهوفن القصور ليعيش بين احضان الطبيعة وليشاركها افراحها عند تفتح الزهور وتطاير الفراش . أو احزانها عند تساقط الاوراق فى الخريف . أو غضبها عند العواصف وانهمار الامطار .

خرج بيتهوفن بالموسيقى السجين ليشترك فى الحركات الشعبية ويتأثر بما حوله من أحداث ويعبر عنها بحرية . واذا بيتهوفن يتراءى له نابوليون فى ثياب البطل المنقذ فيعجب به كابن بار للثورة الفرنسية ويكتب من اجله سينفونية (البطولة) ولكنه يحتقر نابوليون عندما يتحول الى غاز تجتاح جيوشه أوروبا لتعمل فيها تخريبا

وتدميرا فيعدل فى احدى حركات تلك السنفونية ليضمنها (نشيد الموتى) الموتى الذين ذهبوا ضحية جشع نابوليون واستبداده ، وهكذا فبعد ان كانت تلك السنفونية تحية اعجاب لنابوليون اصبحت صفعة فى وجهه وتعد هذه السنفونية فتحا جديدا فى عالم الموسيقى اذ تعتبر حدا فاصلا بين الموسيقى الطبقية وموسيقى الشعب ·

وخرج بيتهوفن بالموسيقى من عالمه الضيق فاذا به يفر بنفسه وبمقدرات الانسان ومصيره واذا به يثور فى وجه القدر الذى كان لامد قريب السيد المطلق واذا بعبقرية الفنان تقدم للانسانية السنفونية الخامسة (القدر يقرع الباب) ويستغرق بيتهوفن فى جولاته الريفية فيؤثر فيه جمال الطبيعة الاخاذ الذى كان يحلو له أن يتلمسه فى ساعات الصباح الباكر فيهدينا ويهدى الطبيعة السنفونية الريفية (السادسة) ·

وعندما يحاول ذلك الفنان المؤمن بالانسان الكتابة الغنائية نجده يرفض الاقاصيص التى تدور حوادثها فى قصور النبلاء لتكون موضوعا لغنائيته بل يلتصق بالشعب ويختار قصة فريدة من نوعها فى ذلك العصر تدور حوادثها فى بيوت أناس بسطاء وهو بذلك يبلغ أوج اتجاهه الشعبى ·

هناك من يضع بيتهوفن فى قائمة الكلاسيكيين · وآخرون يجعلون منه قائد الرومانتيكيين المتمردين ، ومهما اختلفت الآراء فهو بحد ذاته مرحلة من مراحل التطور الموسيقى · وهو بيتهوفن الذى يشكل وحده عالما موسيقيا قائما بذاته ·

مراحل التأليف الثلاث عند بيتهوفن :

قسم النقاد مراحل التأليف عند بيتهوفن الى ثلاث معتمدين بذلك على مؤلفاته السنفونية باعتبار ان السينفونى يعتبر المحك الحقيقى للمؤلف لانها اشبه بكتاب فكرى يناقش فكرة معينة أو موضوعا معينا ·

1 ـ المرحلة الاولى : وكان فيها مقلدا ومحاكيا لمن سبقه من الموسيقيين امثال هايدن وموزار · وخلالها كتب السنفونيتين الاولى والثانية اللتين لا نجد فيهما

الحانا تدل على شخصية بيتهوفن القوية · ومن مؤلفات هذه الفترة الكونسيرتو الاولى للبيـانو ·

2 ـ **المرحلة الثانية** : ويمكن تسميتها مرحلة الانطلاق غير الكامل وفيها حاول ان يبنى لنفسه أسلوبا اقامه على حرية الانغام مع تقيد بسيط بالقواعد المتبعة · وقد طبق أسلوبه هذا بنوع خاص على السونات والرباعيات والسينفونى · ومـن الحان هذه المرحلة السنفونية الثالثة (البطولة) التى تحدثنا عنها سابقا ، والسنفونية الرابعة المسماة (انشودة الغرام) وهى التى تروى قصة حبه لـ (تيريزا دو برونسفيل) وتعتبر فترة حبه لتيريزا اخصب فترة فى حياته التأليفية اذ انتج فيها كثيرا مـن الرباعيات والسونات وكونسيرتو للكمان والكونسيرتو الرابع للبيانو · وفى عـام 1807 تمخضت عبقرية بيتهوفن عن اعظم سينفونيتين فى العالم وهما الخامسة (القدر يقرع الباب) والسادسة (الريفية) ثم اضاف عام 1812 سينفونيتين جديدتين هما السابعة التى قال عنها بيتهوفن : « انـا باخـور الذى يعصـر الخمـرة للانسـانية ويعطى الارواح النشوة الالهية » وقال عنها الموسيقى الكبير فاغنر : « ان السينفونية السابعة ، هى انشودة راقصة عبث كثيرا من الخمر » وقال أيضا : « ان بيتهوفن ارادنا ان نخوض معه البحر الزاخر من رغباته التى لا تحدها حدود ، بسفينة صغيرة يدير دفتها بقوة يحاول بها ان يقطع البحر الى أراضى تملأ النفوس بالامل » · ثم السنفونى الثامنة التى تتصف بالرقة والجمال واتساق الحانها واطلق عليها اسم (السنفونى الصغيرة) ·

3 ـ **المرحلة الثالثة** : تبتدىء عام 1817 ـ 1818 وهى مرحلة الثورة الكاملـة والتحرر التام من القيود الكلاسيكية وفيها ترك بيتهوفن الانغام الضاجة فى رأسه تقود عبقريته·ومن أهم مؤلفات هذه الفترة سونات سماها بيتهوفن الصراع بين العقل والقلب كانت نهاية الابداع ونهاية ما يصل اليه الفن من سمو وابداع، وعدد آخر من السونات والرباعيات وبعض المقطوعات سميت المقطوعات الايكوسية والارلندية · ثم قداسه الحافل والسنفونية التاسعة والاخيرة · وتعتبر هذه السينفونى مع القداس وسونات الصراع بين العقل والقلب أوج التحرر والثورة الكاملة على الاوضاع الفنية

والقيود الكلاسيكية وتعتبر الحركة الاخيرة من درته التاسعة والتى ضمنها نشيد الفرح للشاعر (شيلر) اقصى ما يمكن ان يبلغه الفكر فى الفرح الانسانى ٠

على ان ناقدا اسمه (دى لنز) هاجم النقاد الذين قسموا موسيقى بيتهوفن الى ثلاث مراحل فقال فى كتابه (بيتهوفن وأساليبه الثلاثة) :

يخطىء من يظن ان بيتهوفن انتقل بمؤلفاته وفق تطور خاص منظم ، لان الحقيقة الواضحة التى تبرهن عليها مؤلفاته تدل على انه كان يتطور وينتقل بمؤلفاته من مرحلة الى أخرى مباغتة وفى فترات متباعدة من الزمن وهذا يرجع الى ان تطور موسيقاه كان تطورا يمكن القول عنه انه تطور طبيعى ، لا تطور وفق نظام اعده لنفسه ، لان موسيقى بيتهوفن نفسها كانت تطورا لافكاره ومبادئه التى اعتنقها وسار عليها ٠

اكتفى بهذا العرض الموجز والمكثف عن موسيقى بيتهوفن واذا كان لابد من كلمة أخيرة فأقول ان بيتهوفن عبقرية لم تتكرر منذ أكثر من مائتى عام ٠

عبد الحميد بن باديس
الرجل العظيم

احمد توفيق المدنى
وزير مفوض

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله



سادتى الجلة اخوانى الفضلاء ، سيداتى الصالحات ٠

اننا نجتمع اليوم ، كما كنا نجتمع فى مثل هــذا اليوم منذ قرابة الأربعين سنة ، وعيوننا دامعة ، وقلوبنا خاشعة ، فى ذكرى بطل من أكبر ابطالنا ، وعظيم مــن ابرز عظمائنا ، وقائد من ألمع قادتنا التاريخيين ، عبــر مئات الاجيال ٠ ذلك الذى اتخذ العلم سلاحا ، وتسربل العقيدة وشاحا ، فنفخ فى الامة روح الامل ، وبذر فيها بذور العمل ، وتقدم عملاقا فى ميادين الكفاح ، دون وهن

(I) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم I6 أفريل 1977 ٠

أو وجل ، فسطع النور من فمه ومن قلمه ، وتقشعت السحب ، وارتفع صوت الحق ، ووهنت حجة المبطلين ، وتلاشت اكاذيب وترهات الدجالين ، في السياسة وفي الدين ، واخذ شعبنا العملاق يسير منذ تلك الايام قدما نحو اهدافه السامية ، مستنيرا بتلك المبادىء ، سالكا ذلك الطريق المستقيم طريق الفدائية في العلم والعقيدة ، وطريق الفدائية في القراع والجهاد .

ذلك هو الرجل العظيم الذي غرس فأكلنا ؛ والذي بنى فسكنا ؛ والذي عبد الطريق فسلكنا ؛ والذي فجر نور الهدى واليقين فاستضأنا ، أي وربي ، ذلك الرجل العظيم هو عبد الحميد بن باديس .

فاذا كانت الجزائر الحرة المستقلة ، وهي ترتع تحت اعلام النصر المبين ، قد اتخذت من يوم ذكراه الخالدة ، عيدا للعلم ، ومهرجانا للثقافة ، فقد وفته حقه ، وخلدت ذكراه .

لنقف هنا قليلا، أيها السادة، قبل الالمام بتطورات هذه الحياة القصيرة بمداها ، الطويلة بآثارها ، لنعرف ما هي حقيقة الرجولة الكاملة ، وما هي عظمة الرجــل في التــاريــخ .

ليس الرجل هو الذكر البالغ من بني آدم ، كما يعرفه الاقدمون ، فالذكور قديما وحديثا كثرة كاثرة ، اما الرجال الحقيقيون فهم ندرة غالبة ، ولقد يمر جيل ، أو تمر اجيال بشعوب عدة ، لا تعرف فيها رجلا ، تعيش خلالها عيش السائمة ، وتموت خلالها موت الحشرات حتى اذا ما قيضت لها العناية الالهية رجلا حقا ، اخرجها الله به مـن الظلمات الى النور وبوأها به مقاما محمودا بين الامم .

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الرجل الذي يعيش بفكره ، ويحيا بقلبه ، ويشعر بادراكه ، ويسخر الحياة وما فيها لنفع المجموع ، ولا تسخره الحيـاة لخدمة الجسم الفاني وشهواته ، ومطالبه .

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذي يسير بقوته المجتمع ، الى حيث يريد هو ، لا الذي يساير المجتمع ، ويذوب ويتلاشى فيه ، ويضمحل معه .



الامام الشيخ عبد الحميد بن باديس

انما الرجل الحق ، أيها السادة والسيدات ، هو الذى ينشأ لغاية ،ويعمل لهدف ، ويسعى لعظيم تستفيد منه الجماعة ، ولا يستفيد هو من الجماعة • يذوب فى سبيل النفع العام ، ويتخذ من كل قواه سلما تتدرج عليه الامة نحو المعالى والكمال •

انما الرجال الحق ، هو صاحب المبدأ الذى لا يتزعزع ، والعقيدة التى لا تؤكل من اطرافها ، والسعى المتواصل الذى لا يكل ولا يمل ، والايمان الراسخ الذى تذوب الجبال ولا يذوب ، يقول كلمة الحق فى وجه الظالمين ولا يخاف عقباها •

ان هذا الرجل ، بهذه الصفات التى ذكرت ، هو عبد الحميد بن باديس !

ثم ، ما هى العظمة ، سادتى وسيداتى ، بالنسبة للرجل ؟

اننا لا نفسر هذه الكلمة لغويا ، ولا نفسرها فلسفيا ، فالتفسير اللغوى والتفسير الفلسفى لا يكفيان عندى لبيان المعنى العميق لهذه الكلمة • انما تفسيرها التاريخى ، اذا ما نحن وعينا التاريخ واستخرجنا منه حكمته وفصل خطابه هى : فناء الفرد فى سبيل المجموع ، بصفة يبقى اثرها حيا فى ذلك المجموع اجيالا عديدة ، بعد فناء الفرد •

فاذا ما نحن أخذنا بهذا التعريف ، وجدنا ان الرجل العظيم حقا ، فى النصف الاول من القرن العشرين ببلادنا ، هو عبد الحميد بن باديس •

بهذه الصفات ، وبهذا التعريف ، نستطيع ، سادتى وسيداتى ، ان نمر سراعا ، كما يشاء الوقت ، لا كما نشاء نحن ، بحياة هذا الرجل العظيم ، هذا العبقرى الملهم ، هذا الذى قلت عنه ما اعتقده فيه ، عندما تشرفت باهداء كتابى « محمد عثمان باشا داى الجزائر » اليه : « الى الرجل الذى احيا أمة ، وانشأ جيلا ، وكان شخصه الكريم نقطة الاتصال بين الجزائر الغابرة الماجدة ، والجزائر الحاضرة المجاهدة ، والجزائر المقبلة الخالدة ، الى عبد الحميد بن باديس ، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الراسخ فى الاعماق أملها ، والمرتفع الى العلياء فرعها » •

اننا نرى العبقرية ونرى النبوغ ملازمان لهذا الرجل العظيم فى كل أطوار حياته ، منذ ان كان صبيا يجلس فى الكتاب لحفظ القرآن الكريم ، الى ان توفاه الله ، بعد اداء رسالته راضيا مرضيا ، وما بين تلك الجلسة المباركة ، وهذه الميتة المبكرة ، وهو

لا يزال فى سن العمل والاجهاد ، آيات بينات من جهاد ، وتضحية ، وثبات ، ونفع ، وارشاد ، وكتابة ، وخطابة ، ونصر للحق على قلة أنصار الحق ، ودحض للباطل ، على كثرة أنصار الباطل ٠ « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** » ٠

عرفت الرجل العظيم عشرين سنة ٠ وجاهدت الى جانبه جهادا موفقا ميمونا ما يزيد عن العشرة أعوام ٠ فإذا ما تحدثت اليوم عنه ، وعن كفاحه ، وعن جهاده ، وعن فضائله ، فانما اتحدث حديث الشاهد المؤمن بقوله تعالى : « **ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه** » ٠ وقوله عز من قائل : « **وما شهدنا الا بما علمنا** » ٠

كان أول عهدى به ، بين رحاب جامع الزيتونة الرفيع العماد ، أيام كان كعبة القصاد ، فى حلقات حية عامرة ، فيها العلم ، وفيها التقوى ، وفيها الصلاح ٠ اتلقى على شيوخ جلة فيضا من العلوم ، اتسعت بها المدارك ، وسما بها الفكر ٠ كنت مبتدئا يومئذ فى التعليم العالى ، وكان رجلنا العظيم منتهيا ٠ وبينى وبينه فى السن عشرة أعوام ٠ انما تلقينا معا على العلامة الشيخ محمد النخلى ، دروسه المجمعية فى علم التفسير ، وكان عبد الحميد يناقش ويجادل ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة الا تصدى لها بحثا عميقا ، وكان الشيخ محمد النخلى ، كما كان كبار الطلبة يعجبون بتلك المناقشات الباهرة ، والمجادلات العميقة التى تفتح أمامهم افاقا فسيحة من الفهم والادراك ٠ والغوص العميق فى معانى القرآن الشريف ، واعجازه ٠

وكنا نجتمع حول كتبى واحد ، هو محمد الامين ، نطلع عنده على كل جديد اخرجته مطابع الشرق ، كنا نطالع كثيرا ، ولا نشترى لقلة المدد الا قليلا ٠ وكان الطلبة يصولون ويجولون فى أغلب الميادين ، خارج ساعات الدراسة ، اما الشيخ فكان يؤم توا غرفته البسيطة ، يطالع ويدرس ، ويخطط للمستقبل ، لا يجادل الا فى علم ، ولا يتحدث الا عن مستقبل الجزائر الذى كان يريد بناءه من جديد ، فوق أسس من الدين والعلم ، والهدى والجهاد ٠

ثم افترقنا ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، وأم مسقط رأسه قسنطينة الغناء ، حيث رفع لواء التبشير العلمى ، وجاهر بدعوة التجديد والاصلاح ،

سائرا مع القاعدة القرآنية : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن**» • فالغاية عنده هى الوصول بالشعب الى المستوى الرفيع الذى يحطم ويلات الحاضر الاليم ، ويقيم أسس الجزائر المقبلة ، الواعية العاملة ، الهادفة ، بينما انضممت انا ، فى غمرة من التفاؤل ، وفى اندفاع ثورى عارم ، الى صفوف الحـزب الحر الدستورى الناشىء ، فما عتم عبد الحميد ان أصبح فى قسنطينة نارا على علم ، وما عتم اخوكم هذا ان أصبح أمينا عاما مساعدا لحزب الاحرار الدستوريين ، ثـم جمع الله بيننا بعد حين ، فاذا بنا نسير فى طريق واحد لا التواء فيه ، طريق زرع أشواكا ، واكتنفته العراقيل ، وحف بالمكاره ، انما كنا نرى فى آخره ، بفراسة المؤمن الصادق ، استقلال أوطاننا ، واتحاد مغربنا الكبير وسعادة شعوب الاسلام ، وارتفاع شأن الدين أعلى عليين •

قص على يوما ، ونحن بين آكام من الكتب بمكتبة الخلدونية ، قصة زيارته للحرم المدنى الشريف وما رأى فى مدينة الرسول ، من سمو ومن انحطاط ، وما شاهده فى بعض علمائها ـ وكان فيها علماء جلة من ارتفاع فى المدارك ، ومن سفالة فى الاخلاق ، قال : « وقفت وقفة اجلال وخشوع أمام قبر محمد وصاحبيه ، وأحسست انى قـد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية ، واصبحت روحا صافية طاهرة وغابت عنى كل ملابسات الزمان والمكان ، وخاطبت روح محمد صلى الله عليه وسلم ، وكاننى اراها فقلت : يا رسول الله هذا عهد بينى وبينك ، لأعيشن فى سبيل دينك وأمتـك مجاهدا ولأموتن فى سبيل دينك وأمتك شهيدا ، والله على ما أقول وكيل » •

ولقد بر بوعده ، برور الرجال العظماء • فما قضى يوما من أيام حياته الغالية الا مجاهدا كريما ، وقد أخذ الداء الفتاك يستأثر بجسده الواهى ، وهو لا يأبـه بذلك ولا يستمع الى أقوال الاطباء الا قليلا • ولطالما وصفوا له الدواء ، فاذا بالايام تمر تباعا ، والدواء عند رأسه باقيا على حاله • كان رحمه الله لا يأبه بالجسم ، اطلاقا ، أبدا ، بل كانت القيمة الوحيدة لديه هى الروح ، كان يتعهدها ، كان يطهرها ، كان يغذيها بالتقوى والايمان ، كان يرعاها ببث العلم بين ناشئة الشعب ، وتفجير طاقات

الهدى بين كل أفراد الامة ، وتحطيم جدران اليأس والخيبة التى أحاط بها الاستعمار بلادنا المجاهدة ، بعد تضحياتها الجمة ، وكفاحها الغزير ٠

قلت له يوما فى مكتبى ، وقد رأيت عليه علامات الفاقة والاعياء : يا أخى ، أمـا آمنت بان لنفسك عليك حقا ؟ اما قرأت تفسير قوله تعالى : **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك** ، فأجاب فى هدوء غريب « كلا يا أحمد ٠ ما عملت طول حياتى الا بهذه الآية الكريمة ٠ ان نصيبى من الدنيا هو بث العلم ، واعداد إلناشئـة ليوم رهيب ، وتجهيز الشعب بما يقوى روحه ويرجع له الامل ، وحفر الاسس العميقة التى يقيم عليها الشعب جدار حياته الحرة المقبلة ٠ وبذلك فى نفس الوقت ، أحسن كما أحسن الله الى » ٠

وانتصب الرجل العظيم مدرسا ، واتخذ من مسجد سيدى قموش بقسنطينة معقلا له ٠ وأخذ الطلبة يتوافدون عليه من كل حدب ، فغصت الرحاب ، وضاقت حلـق الدرس ، وما ازداد خبره انتشارا ، الا ازداد عدد الطلبة حول ذلك المعقل النورانى العظيم ، الى ان أصبح ذلك المعهد الصغير يضم ما يقارب الالف من الطلبة ٠ وكـان يلقى عليهم ، من بعد صلاة الفجر ، الى بعد صلاة العشاء ، كل يوم ما عدا الجمعة ، سبعة دروس تتناول مختلف علوم الاسلام ٠

ولم تكن عظمتـه ، سادتى وسيداتى ، مرتبطة بذلك الكـم من الدروس المختلفة المتباينة بل كانت العظمة مرتبطة بكيفية تلك الدروس ، بمناهجها ، بالفكرة العالية التى تمليها وتهدف اليها فقد كان فى تفسيره لآيات القرآن،وللمنتخب من أقوال الرسول، يبث آراء وأفكار ابن تيمية السلفية ، الصالحة ، ويحارب بشدة وصلابة تلك الخرافات التى الصقت بالدين ، وهو منها برىء ، وما أصبح للناس من الدهماء ومن انصـاف العلماء عقيدة راسخة من اباطيل وترهات الاسرائيليين ٠

لقد كان رجلنا العظيم متصلا ، منذ ان شب فى العلم عن الطوق ، بجماعة العروة الوثقى السلفية التى أسسها مصلح الاسلام العظيم ، جمال الدين الافغانى ، الداعية ، المفوه ، المحجاج ، كما اتصل اتصالا وثيقا بالشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنـار الاسلامى ، وراوية شيخ الاسلام محمد عبده ، وكانت بينهما مناقشات ومجادلات ٠

كانت كل هاتيك الافكار والمعانى ، والآراء ، تملا دروس الرجل العظيم ، وتسيل مع روعة بيانه حكمة وفصل خطاب · يتلقاها الطلبة الميامين بقلوبهم لا بآذانهم ، وتعيها أنفسهم الطاهرة ، ثم هم يتحدثون عنها ، ويبشرون بها ، ويجادلون المخالفين فيها ·

اما فى التاريخ ، فقد اتخذ منهاجا ثوريا ، يقوى النفوس ، ويبعث ما نام من العزائم، متخذا من سيرة الرسول الاعظم مثلا يحتذى فى القوة والشجاعة والبأس ، ونصرة الحق ، ومحاربة الباطل ، والثبات على المبدأ ، والصبر على الاذى ، وبناء المستقبل الزاهر الشريف لبنة لبنة ؛ وجمع الفئة الصالحة من رجال الامة حول كلمة الله، ليقارع بهم الفئة الطالحة المضلة منها ، واتخاذ المواقف المختلفة ، من السماحة الى الشدة ، حسب مقتضيات الاحوال محتجا بقوله تعالى ، فى موقف اللين ، **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** · وبقوله تعالى ، فى موقف الشدة والصلابة : « **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** » ·

وهكذا ، كان يتخرج من بين يديه رجال ، ودعاة ، وقادة ، رأيناهم ــ ولا نزال والحمد لله نرى بقاياهم ــ يتبوأون المقاعد الاولى فى مختلف نواحى الكفاح الاسلامى الوطنى ، وكان لهم ــ يشهد بذلك العدو والصديق ــ القدح المعلى فى معمعة الكفاح الوطنى الذى جعل لحمته الدم القانى ، وجعل سداه الارواح الطاهرة ، يقودون الكتائب ويبشرون بنصر الله الى جانب اخوان لهم اموا المعركين ، مجاهدين ، لا يعرفون الا انهم جنود الله ، وانهم يموتون فى سبيل الله · فكانوا فى ساعات الراحة ، وبين قصف المدافع وألسنة اللهب ، يجلسون الى اخوانهم أبناء باديس العظيم ، أو التابعين لهم باحسان ، يتلقون عنهم ما احرمهم الاستعمار اللعين منه ، من أسرار الدين ، وعظمة الاسلام · .ما اعده الله للمجاهدين وللشهداء ·

بل ان مراكز التجمع والمحتشدات ، وساحات السجون المختلفة ، قد أصبحت بنعمة من الله وفضل ، حلقات دروس تفيض علما وحكمة وتوجيها ، تتدفق من أفواه أبناء باديس فتغذى العقول ، وتفتح الافكار ، وتجمع الى روح التضحية والفداء ، نور العلم والتقوى ·

واقتحم عبد الحميد الرجل العظيم ، الى جانب ميدان نشر العلم وبث الدعوة الاصلاحية ميدانا جديدا ، هو ميدان الحياة الصحفية ـ وما أوسع هذا الميدان ، وما الذ الكفاح فيه ـ ولعل الكثير منكم سادتي وسيداتي ، لا يعلم ان ابن باديس قد استهل حياته الصحفية بمقالات متواصلة كان ينشرها في جريدة النجاح ، لاول عهدها ، ولعل الكثير منكم لا يعرف كذلك ، ان ابن باديس كان يتخذ يومئذ لمقالاته امضاء مستعارا ، هو « العبسى » مستمدا ذلك الاسم من شهامة وهمة واقدام عنترة بن شداد العبسى •

ثم تقدم خطوة أخرى جريئة كان لها الاثر الكبير الفعال على حياته ، وعلى حياة الامة معا ، بتأسيسه لمجلة « المنتقد » التى ما عاشت الا قليلا جدا ، ولقد فوجئت الحكومة الاستعمارية وكل الاوساط الرجعية ، بتلك المجلة التى اقضت مضجعها ، فقضت عليها ، لكنها كانت قد فتحت فى عالم النشر وعالم الدعوة الاصلاحية والاجتماعية ، صفحة جديدة ، خالدة ، لا تبليها الايام •

كنا يومئذ نجتاز سنة 1925 ، وكان من ثمرة كفاحى بتونس ، فى ميدانى السياسة والمجتمع ان ضاق بى الاستعمار الفرنسى ذرعا ، وما اغنى عنه شيئا ما صدر منه نحوى من وعد أو من وعيد فاصدر أمره بابعادى عن تونس ، بسرعة خاطفة ، فما شعرت بعد ابلاغى الامر ، الا وأنا بسيارة تنهب بى الارض نهبا ، الى ان سلمتنى لمحافظ الشرطة فى مدينة عنابة • وأنا كما قال الحريرى ، لا أملك بلغة ، ولا أجد فى جرابى مضغة ، انما وجدت بعنابة أهلى وعشيرتى من أبناء الاسلام واشبال الوطنية ثم سرت بعد اقامة قصيرة الى مدينة قسنطينة ، وكأننى حللت جنة وارفة الضلال ، وكنت أكاد أشم ريح النهضة يعبق من بين جدرانها ، وتتدفق سيول الامل والعمل من بين منازلها •

واجتمعت بالرجل العظيم ، عبد الحميد بن باديس • كان لقاؤنا نورانيا ، ما ذكرته الا واقشعر جلدى ، وتوقف نفسى لروعة ذلك اللقاء • ولجسامة ما تم بعد ذلك اللقاء ، كنت خلال أسبوع بتلك الديار القسنطينية اسبح فى بحر من نور ، واسرى فى سماء من امل ورجاء وكفاح • واجتمع برجال ابرار كانوا حول ابن باديس كالحواريين حول عيسى ابن مريم ، ثم غادرت قسنطينة مكرها ، لافتتح بعاصمة الجزائر صفحة عمل

وصفحة أمل ، بعد ان تعاهدت مع ابن باديس وصحبه على القيام بعمل مشترك ، من ورائه حياة الاحرار ، أو موت الشهداء الابرار •

انكم ستجدون ، سادتي وسيداتي ، حديثا مفصلا ، ممتعا على ما أظن ، طويلا ، عن هذا الاسبوع الذى قضيته فى ميدان الحياة الحرة الكريمة بمدينة قسنطينة • وقيمة ذلك الاسبوع عندى قيمة عمر كامل فى مستهل الجزء الثانى من مذكراتى «حياة كفاح» الذى سيصدر بحول الله وبفضل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، بعد نحو الشهرين اننى لا أقول هذا دعاية لكتابى ، ولا تنويها بنفسى ، وهى لا تستحق أى شىء • بـل أقوله ليعلم الناس كافة ، ودعاة العمل والاصلاح السلفى بصفة أخص ، ان التاريخ الحق لا يغفل شيئا **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره •**

تعهدت لابن باديس يومئذ وأصحابه ، ان أحرر لهم مقالا ، لكل عدد من الشهاب الاسبوعى يتناول السياسة الخارجية بصفة توجيهية ، من باب ايـاك اعنى فاسمعى يا جارة • كما اتفقنا على أن يكون مقالى خلوا من كل امضاء ، حتى لا تتخذ الادارة من ذلك ذريعة لالحاق الاذى بالشهاب ، بدعوى اننى من رجال اللجنة التنفيذية ، بالحزب الدستورى التونسى واننى اتعمد بمقالاتى تلك ، بث الروح الحرة الدستورية بالبلاد الجـزائـريـة •

فما كان يتعطل الشهاب الاسبوعى ، حتى خلفه الشهاب الشهرى ، فى حلة قشيبة يحمل كل شهر لقرائه ما لذ وطاب من حديث الدنيا والدين ، مبشرا بالفلاح والنصر المبين قوما مؤمنين وأسس له مطبعة خاصة به تامة التجهيز • وان مجموعة الشهاب سادتى وسيداتى ، لمن امتلكها ، لخير ذخر ، واسمى وثيقة ، تجلو الغبار عن عهد بناء مشمخر متين الاسس ، لقد كان الفاتحة الطيبة للمسيرة الصالحة الجريئة التى انشلت الامة الجزائرية من وهدة الافلاس فى السياسة ، ونكبة التنكر فى الدين ، اندفعت جريئة جامحة ، تحطم ما يستحق التحطيم ، وتبنى ما هو واجب البناء ، الى ان استوى العود ، وبلغت الامة اشدها ، فاذا بها المارد الجبار ، الذى قهر الاستعمار ، ورفع لواء الاحرار ، بفضل المجاهدين الابرار ، وللحرية والاستقلال عقبى الدار •

ولقد تفاقم أمر الطلبة حول ابن باديس ، وجاءوه زمرا من كل آفاق البـــلاد ، كطليعة رواد ، تنهل من معين العلم ، وتتغذى بسامى الافكار ، وتتلقى من المنبع أصول التضحية والجهاد • وكان أولئك الطلبة الوافدون ، لا يجدون غالبا ما يسدون به الرمق ، فقد كانوا فى جهاد عنيف بين الروح وبين الجسم ، تلك تريد علما ، وهو موجود ، وذلك يريد غذاء وهو مفقود •

قال المتنبى : واذا كانت النفوس كبارا ••• تعبت فى مرادها الاجسام

يومئذ ابتكر ابن باديس العظيم مشروع : صندوق الطلبة ، واعلن عنه للامة فى الشهاب ، فاذا بالاموال تتدفق على ذلك الصندوق ، واذا بالبائسين من الطلبة يجدون يوميا بواسطته ما يقيهم غائلة الجوع • فاقبلوا بارواح مطمئنة وانفس طاهرة ، عـلى العلم الصحيح وعلى الفكر الصحيح ، يعبون من ذلك عبا ، الى ان صاروا ، أو صـار أكثرهم على الاصح ، من الدعاة المصلحين ، ومن العلماء العاملين ، ومن القادة المؤمنين •

لكن الطلبة ازداد عددهم الى ان كادت تضيق بهم المدينة الطيبة ، كما ان عـددا من أوائلهم قد تخرج من تلك المدرسة الصغيرة بحجمها ، الكبيرة باعمالها وبنتائجها فاتجه يومئذ تفكير الرجل العظيم الى ابراز مدارس التربية والتعليم الى الوجود ، وهى مدارس ابتدائية ، ما كادت تنشأ حتى انتشرت وعمت • ولقد كان تأسيسها نتيجــة تخطيط محكم ، ودراسة عميقة ، بحيث انها كانت تهيىء الولد الصالح علميا وفكريا ، لولوج مراحل التعليم التكميلى الذى كان يباشره ابن باديس بنفسه ، وهكذا أصبحت المدارس الحرة تنمو بسرعة فى مختلف جهات البلاد ، تسودها فكرة الاصلاح الاسلامى ويغذيها الايمان بمستقبل الوطن •

أخذت يومئذ تتصاعد نحو السماء ، أصوات شعب بعثه الله بعثا جديدا ، ينادى بالاصلاح الدينى ، والتحرر السياسى ، تغذيه العقيدة ويدفعه الشعور • والشهاب من وراء ذلك يمد الحركة الناشئة بفيض من الوعى والادراك ، واندفعت الحركة اندفاعا صاروخيا ، لا يرجع أبدا على الاعقاب •

هنا كان رد فعل ادارة الامور الاهلية قويا ، انما لم يكن مجديا ولا فعالا •

اوحت الى رجال الطرق الدينية التى أصبحت فى غالبها اداة ارتزاق واستثمار ، بان يحزموا أمرهم ، وان يظهروا بمظهر القوة لان حركة الاصلاح كادت تكتم أنفاسهم وتسد دونهم كل المسالك ، وهكذا نشأت فى البلاد حركة الطريقة الموحدة ٠ واجتمع ضعيفها الى ضعيفها ، فتكونت منها عصبة ضعيفة بنفسها ، متماسكة بفضل من كان يمسك من وراء ستار شفاف بخيوطها ، وأخذت تلك العصبة تقاوم فكرة الاصلاح الاسلامى ، وتدافع كما كانت الجاهلية الاولى تدافع عن معتقدات الآباء والاجداد ٠

لكن شاعرا عربيا قديما قال :

واذا أراد الله نشر فضيلة   طويت اتاح لها لسان حسود

لقد كانت هذه الحركة المبطلة شرا وبيلا على أصحابها ، ووسيلة من أحسن وسائل نشر الدعوة للاصلاح ، ولرجال الاصلاح ٠ وقد كثر عددهم ، وبرزت صحفهم ، وشحذت اقلامهم ، فاصبح القطر الجزائرى كله ، من اقصاه الى اقصاه ، مجال معركة هائلة ، قلمية وشفوية ، بين رجال الاصلاح والوعى والمستقبل الحر السعيد ، وبين رجال الرجعية والجمود والاستخذاء ، وكما كان النصر فى معركة العلم والتعليم والارشاد مبينا واضحا ، كذلك كان النصر فى المعركة بين التطور والجمود ، مبينا ، واضحا ، وكانت صورة رجلنا العظيم ابن باديس ، تشرف على ذلك الميدان الفسيح ، كانما هى راية النصر المبين ، وانتقلت المعركة يومئذ الى العاصمة ٠ فلقد افلحنا سنة 1927 بتأسيس « نادى الترقى » ودعونا يوم افتتاحه رجلنا العظيم ابن باديس لالقاء محاضرة يختار بنفسه موضوعها ، فجاء رحمه الله مسرعا ، والقى تلك المحاضرة التى كانت اشبه شىء بالهام ، حركت الهمم ، والهبت المشاعر ، وراى الناس رأى العين حقيقة ما يجب ان يقوم به العالم المعمم ، والعلماء ورثة الانبياء ، الا وهو قول كلمة الحق ، وارشاد الناس الى الطريق المستقيم ، ودفع الامة دفعا الى ما يحييها ، ويرجع كرامتها ، ويبعث مجدها ، ويبوئها مقعد صدق بين الامم الحية الناهضة ٠

وكان رجلنا العظيم اذا خطب ، اتى بالعجب ، كان لا يتكلم بلسانه ، بل كان يتكلم بقلبه وشعوره واحساسه ، وكانت كل كلمة تخرج من فمه ، وكأنها السهم

الصائب الذى يحيى ولا يميت ، فمن أصابه ذلك السهم ، دبت فيه بذور الحياة الابدية كان اذا تكلم وغاص فى بحر حديثه ، اغمض عينيه حتى لا يرى الناس الا بمرآة قلبه وكانه يناجى كل أحد منهم على انفراد ، الى ان يقنعه واشهد اننى ما رأيت فوق رقعا أرضنا هذه خطيبا مصقعا ، يصيب المحز ، ويتغلغل فى أعمـــاق العقول والقلوب ويهز المشاعر هزا عنيفا ، كرجلنا العظيم ابن باديس • لقد كان فى خطبه اسمى واعلى مما كان فى كتابته • كان يكتب كتابة العلماء المصلحين ، وكان يخطب بلسان المدرهين من رجال الفكر والحكمة والسياسة •

ولقد ام تونس يوما وهو منتدب لالقاء كلمة باسم الجزائر ، ضمن اطـار الجمعية الخلدونية فى ذكرى الراحل الكبير ، والمعلم الاول البشير صفر ، رحمه الله • وفى تونس كما تعلمون ، سادتى وسيداتى ، خطباء فحول ، ومتلكمون بلغاء • فما وصلت نوبة الكلام الى ابن باديس ، حتى تفجر ينبوعا صافيا ، يروى الناس بفيض من العلم والاخلاص والفكر الحر ، والتوجيه الصادق ويصوغ المعانى الرفيعة الدقيقة فى قوالب جميلة مستحسنة تدخل الاذن كما قيل بغير اذن ، ويتذوق السامعون لذتها ، ويعون معانيها ، ويدركون جد الادراك مغازيها ، حتى اذا ما انتهى خطابه قال الناس جميعا هذا هـو الخطيب !!

أما نحن ها هنا بعاصمة الجزائر ، وفى عدد جم من مدن الجزائر ، فقـد استمتعنا كثيرا بتلك الخطب الفياضة الملهمة ، حتى لوددنا ان نقضى الجزء الاكبر من حياتنا ونحن نسمع ، ونستمتع ، وقلوبنا تطير فوق أجنحة الامل ، نحو المستقبل السعيد والهدف المنشـــود •

قال يوما فى اندفاع ثورى بديع : لبئست الامة أمة يجمعها بندير ، ويفرقها عود بوليس اما هذه أمتنا أمة الجزائر ، فى ميدانها الاصلاحى ، الاجتماعى ، التحررى لا يجمعها الا الله ، ولا يفرق بينها الا الموت •

وجاءت الساعة الحاسمة ، سادتى وسيداتى ، جاءت ساعة ظهور الحق ، جاءت ساعة بروز الامة نحو الحياة الحرة الكريمة ، الواعية ، الهادفة ، جاءت ساعة تاسيس جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين . فلقد نادينا بها من نادى الترقى ، ودعونا لتأسيسها مئة من علماء القطر الجزائرى ، لا فرق بين مصلح وبين طرقى .

فلبوا جميعا النداء فى اندفاع اسلامى طاهر نقى ، واموا ساحة نادى الترقى الفسيحة يتلألأ فوق جباههم نور الايمان ، ويشرق محياهم بصدق العزيمة ، وكان جمعهم آية من آيات اعجاز هذه الامة الطاهرة ، التى ما دعيت لمكرمة الا استجابت ، وما انفتح امامها باب من أبواب الامل الا ولجته ، غير هيابة ولا وجلة . لقد كان ذلك جوابا عنيفا شديدا ، قاسيا للاستعمار الفرنسى الاخرق ، الذى احتفل منذ سنة بمضى مئة عام على احتلال الجزائر واذلالها وارضاخها عنوة راقتدادا لافظع استعمار ، واشنع استثمار ، ونادى يومئذ باعلى صوته : ان الجزائر قد أصبحت فرنسية ، والى الابد . وجاء علماء الجزائر ، وكانهم اشباح الكرامة ، برزت من اجداث شهداء الحرية والاستقلال ، يقولون لفرنسا ، وللعالم الذى كان ينظر وينتظر : كلا ، بل الجزائر عربية ، مسلمة ، حرة الى الابد .

ان صوت الامة ، كما قال الرومانيون ، هو صوت الله . فلقد خسئت منذ ذلك اليوم كلمة فرنسا الاستعمارية ، وصدقت كلمة الامة فى ندائها بالعروبة والاسلام والحرية ، الى الابد ، نعم الى الابد .

يومئذ فتح امام رجلنا العظيم ، الذى اختير رئيسا باجماع ، ميدان فسيح للعمل والسعى والجهاد ، يومئذ رأى عظمة المسؤلية ، خطورة الموقف ، وصعوبة الوصول الى الهدف ، ويومئذ رأينا نحن ، ويالعظة ما رأينا ، رأينا رجلا نحيلا ، ضامرا ، طال وطال الى ان اربى على قمم الجبال رأينا عزيمة قدت من زبر الحديد ، تجلت فوق الميدان فغمرته وعمرته . رأينا ايمانا يفيض ويشع حتى ملأ البلاد نورا ويقينا . رأينا اقداما على التضحية والفداء ، يفوق كل ما كنا نعرف عن التضحية والفداء . رأينا الصورة الحقيقية لعبد الحميد بن باديس ، التى سيطرت وهيمنت على الرجال وعلى الحوادث ، والتى تضاءل أمامها كل مبطل ، والتى انهار تجاهها كل جبار عنيد .

جاءنا عبد الحميد يوما الى النادى ، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة . فقال : اليوم ادركت السر فى ان محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ وعاش يتيما . فلقد

وقفت اليوم أمام والدى محمد المصطفى بن باديس ، وهو يجلس الى جانب ميرانت
مدير الامور الاهلية ، موقفا أرجو ان يحتسبه اللـــه لى يوم القيامة . فلقد ابتدرني
ميرانت بحديث حلو العبارة مر المذاق ، وقال لى : يا شيخ ، اترك عنك هذا العار
أخرج من هذه « الحشومة » ودع هذه الجماعة المسكينة التى جمعها عدو فرنسا بالنادي
فليس هؤلاء الرجال رجالك ، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب
لهم ، أو ان يكون رئيسا عليهم . قال : واستمر على هذا المنوال ، ودمـى يفـــور
وشعورى الجريح يتأجج كانه نار ، وحاولت ان أرد الصاع صاعين ، واذا بوالدى
وهو كل شيء عندى بالنسبة للحياة الدنيا ، يقف أمامى ، ويبكى ، ويقول : يا عبـــد
الحميد يا ولدى ، ربيتك صغيرا ، وعلمتك يافعا وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة
حتى غدوت عالما تشد اليك الرحال . فلا تفضحنى اليوم يا عبد الحميد فى شيبتى
لا تشمت بى الاعداء ، لا تتركنى للمذلة والهوان . هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا
الا الخير . وقد مهد لى سبل الوصول الى المركز الذى أنا فيه ، وان الاعراض عنه هو
أعراض عنى أنا ، والاساءة اليه ، هى اساءة لى . ورفض طلبه هو رفض طلبى ، وقد
أمر الله باطاعة الوالدين فانا آمرك يا عبد الحميد بالتخلى عن هذه الرئاسة وعن هذه
الجمعية . قال : ثم انحنى أمامى وأنا أذوب ، واكب على رجلى يقبلهما ، ويبكى ويقول
لا تفضحنى يا عبد الحميد .

قال : فانتصبت واقفا ، وأنا ارتعد تأثرا لا رفقا ، وتوجهت لوالدى وقلت : حاشا
ان أعصى لك أمرا ، أو ان أخالف لك رأيا . وأنا ابنـــك المطيع . الا ان هذا الذى
تدعونى اليه ليس فى استطاعتى اطلاقا ، لاننى ان أطعتك فيه خالفت أمر الله . وأمر
الله فوق أمر الوالد بنص القرآن ، ولقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هـذا
الموقف ، أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته ، فراودوه على ان يترك الدعوة لله ، ولـه
ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع ، فأجابهم الجواب القاطع الصارم : والله لو وضعوا
الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر ، مـا تركته ، الى أن
ينصره الله أو اقضى دونه ، هذه هى كلمتى الاخيرة يا والدى ، ويا مسيو ميرانت
وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء وخرجت لا الوى على شيء .

قال له علامتنا العظيم ، البشير الابراهيمي ، على الفور : طوبى لك يا عبد الحميد وحسن مآب • وقمنا اليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعا ، فلقد اعتبرنا انتصارنا فى تلك المعركة ، مقدمة لانتصارات باهرة فى معارك أخرى ، آتية لا محالة •

ونشأت جمعية العلماء المسلمين ، واشتد ساعدها ، وكان من أمرها ما كان ، مما تعرفونه جميعا ، فحياة جمعية العلماء المسلمين ، قبل معركة التحرير وخلال معركة التحرير جزء كبير من حياة الجزائر ، وهى تستعد لخوض معركة من أكبر معارك التاريخ فى العصر الحديث •

ولا أنسى ، سادتى وسيداتى ، يوم نشر زعيم كبير من زعماء تلك الساعة ، مقالا يؤيد به سياسته ، تحت عنوان : فرنسا هى أنا ! يقول فيه انه راجع الكتب ، وجال خلال القبور وسأل الخاص والعام ، عن وطنية جزائرية ، وعن قومية جزائرية ، فلم ير لذلك أى اثر • اذن ، ففرنسا هى الكل ، والكل هو فرنسا ، الى آخر تلك الخرافة •

كتبت ساعتئذ للشهاب مقالا أقول فيه : كلا ، ان الجزائر ليست فرنسا • ولم تكن الجزائر فرنسا ، ولن تكون الجزائر فرنسا ، ان كل ما عند فرنسا يخالف كل ما عند الجزائر ، ونحن أمة جاهدت وتجاهد ، ولنا تاريخ حافل مجيد • ومستقبلنا هو فى اعادة امجادنا ، واحياء تاريخنا وبعث لغتنا •

وصبيحة الغد ، وجدت شبحا أبيض اللون على باب مكتبى ، تبينته فاذا به عبد الحميد بن باديس قال : تلقيت مقالك ، واعجبنى واطربنى ، انما بادرت بالمجىء اليك لنتباحث فى موقف الحكومة تجاه هذه الاقوال الصريحة التى تنشر هكذا لاول مرة وهى تخالف القانون الفرنسى على خط مستقيم قلت : قد تدبرت الامر • واننا لكاسبون فى قضية القومية الجزائرية على طول الخط • وفى الموقف احتمالان : فاما ان يتحرك الاستعمار ضدنا ، بسجن ، أو نفى ، أو تعطيل للشهاب ، وبهذا تكون قضية الشخصية الاسلامية الجزائرية قد كسبت كسبا كبيرا ، ووضعت فى مجالها وتكلم عنها الناس شرقا وغربا • وان عطل الشهاب من أجلها قدمنا مكانه مجلة أخرى ، تحمل حولها هالة الشهاب • وان سكتت الحكومة متربصة بنا الدوائر ، استمر بنا السير فى هذا

الطريق الذى فتحناه • قال : هذا ما كنت أريد أن أسمعه • ورجع من توه الى قسنطينة ونشر المقال ، وكان من امره ما كان ، ولم تتحرك الحكومة ، بل حركت اذنابها •

وهل أتاكم حديث المؤتمر الاسلامى الجزائرى سادتى وسيداتى • انه حقا لحديث عجب • لقد مل بعد ذلك رجال السياسة الجزائرية ، ما تسلكه السياسة الفرنسية نحوهم من مماطلة وتسويف، وما يتخذه المستعمرون الاجلاف من مواقف مزرية مخجلة ليست من السياسة ولا من الانسانية فى شىء ، فجزم جماعة النواب المسلمين من كل اطراف البلاد امرهم ، وجمعوا فى عاصمة الجزائر مؤتمرا عاما ، ما شذ عنه الا حزب الشعب الاصيل ، لان سياسته الاستقلالية لا تتفق أصلا مع سياسة أولئك النواب • فهو يريد الاستقلال وقلع جذور الاستعمار ، وهم يريدون اصلاحات تمكن الشعب من بعض حقوقه • كخطوة تتلوها بعد التنفيذ خطوات •

ولقد بلغ من أهمية جمعية العلماء تلك الساعة ، وتغلغلها فى كل الاوساط الجزائرية ، ما جعل الذين فكروا فى عقد ذلك المؤتمر يبادرون بدعوتها ، وضمها الى اللجنة الاساسية ، وكان رجلنا العظيم ابن باديس ، ممن ايد المؤتمر ، ودعا الى عقده ، وكان يعتبر انجازه كسبا عظيما للجزائر ، مهما كانت مقرراته ، ومهما كانت نتائجه • وكانت جمعية العلماء تطالب يومئذ بشدة وبقوة ، بفصل الدين الاسلامى عن الحكومة الفرنسية ، حتى يستقل المسلمون ، كاتباع الديانات الاخرى ، بأمر دينهم وأوقافهم ، ومساجدهم ، وقضائهم الشرعى • وبان الاحراز على الحقوق السياسية لا يستوجب الحرمان من الحالة الشخصية الاسلامية ولقد ضغطت الجمعية ضغطا عنيفا ، الى ان قرر النواب وصادق المؤتمر الذى حضره الى جانبهم العلماء ، والمستقلون ، والشيوعيون اعتبار مطاليب جمعية العلماء من جملة بل من صميم ما يطالب به المؤتمر • واسندوا رئاسة المؤتمر ، باجماع لرجلنا العظيم ابن باديس • وكان العلماء يشاركون فى المؤتمر بصفتهم الشخصية ، لا ممثلين للجمعية •

ولم نكن نرى اطلاقا ان برنامج فيوليت يحقق رغبات الامة أو يغير وضعيتها ، ولم نكن ندافع عنه فى الشهاب وفى صحف الجمعية أو ندعو اليه • بل كنا نحمل عليه ،

ونبيّن عيـوبه · ومجموعات الشهاب وصحف الجمعية لا تـزال موجودة ، شاهـدة ، والحمـد للـــه ·

ان الامر الذى يسجله التاريخ ، ويشهد به العام والخاص ، هو ان ابن باديس العظيم كان فى رئاسته للمؤتمر الاسلامى ، كما كان فى رئاسته لجمعية العلماء ، الرجل الحازم العازم ، القوى الشكيمة ، البعيد النظر ، المفكر العميق ، الذى ان لم يحبه الجميـــع ضمن دائرة المؤتمر فقد كان يحترمه الجميع · بل ويخضع لرأيه الجميع ·

سافر وفد المؤتمر لباريس ، ليجادل الحكومة الفرنسية حول وضعية الشعـــب البائسة ، وحول الوسائل التى يمكن بها نزع الاغلال عنه ، فما وجد الوفد هذه المرة ، كما لم يجد أى وفد فى المرات السابقة ، أى استعداد لاى مفاهمة · فحكومة باريس كانت ، ولم تزل خادمة لركاب الاستعمار والمستعمرين ، الى ان هوت معهم الى الحضيض تحت ضربات الثورة الهائلة ·

واشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة ، الى درجة انه احتـد وجابه الوفد بقوله : لا تنسوا أيها السادة ان فرنسا معها المدافع ! فوجم القوم الا ابن باديس الذى ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان ، حتى جابـــه رئيس الحكومة بمثل حدته : وانت لا تنس أيها السيد الرئيس ، ان الجزائر معها الله ، وانتقل الوجوم من الوفد الى الرئيس ·

وكان القدر قد تكلم ساعتئذ بلسان فصيح · وكان المصير قد تقرر تلك الساعة : فرنسا معها المدافع · والجزائر معها الله · واستمر اغترار فرنسا بالمدافع ، واستمر اعتزاز الجزائر بعون لله ، وتغيرت الاحوال ، وتقلبت السياسة، الى أن نفخ الجزائريون الابطال فى صور الثورة العارمة ، يوم فاتح نفامبر المجيد · واقتحموا الميادين باسم الله ، وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع · فما أغنى عنها ذلك شيئا ، ونصر الله بفضل الشهداء والتضحية الذين قاموا باسمه : **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا اللـه ينصركم ويثبت أقدامكم !**

كان آخر موقف علنى وقفه ابن باديس العظيم ، والازمة العالمية خانقة تهـــدد العالم بشر وبيل ، هو رده ضمن مجلس جمعية العلماء ، على من قال : يجب علينا ان

نوجه برقية تأييد لحكومة فرنسا · اننا بذلك نأمن غائلة أعمالها ضدنا اذا ما اشتعلت نار الحرب ونضمن كذلك مراعاتها لحقوقنا اذا ما خرجت من الحرب منتصرة ·

أجابه ابن باديس على الفور ـ وايده كل الاعضاء ـ قائلا : كلا ، لن نرسل لحكومة فرنسا أى تأييد · انها حطمتنا واذلتنا ساعة رخائها ، فلا يجب ان نمد لها يدا ، أى يد ، ساعة عسرها · طالبنا مرارا وتكرارا ، فكانت تصم آذانها وتتجنى · ونحن اليوم نصم آذاننا عنها ، ونتجنى · وانسحب صاحب الاقتراح من الجمعية · ولم تخسر الجمعية شيئا ·

جاءت الحرب العالمية هوجاء عاتية ، وجثم المرض الخبيث على صدر رجلنا العظيم ، فالزمه الفراش ، ساعة كان الناس ينتظرون منه كثيرا ، وساعة كان مع جماعة من أصحابه الاقربين ، يستعد فى ايمان وتصميم ، لولوج معركة العزة والكرامة · وما عتم الموت الرهيب ان انتزع من ذلك الجسد الفانى تلك الروح النورانية الطاهرة ، فرجعت الى ربها راضية مرضية ، وما عاشت الجمهورية الفرنسية الثالثة بعده الا شهرين فقط فانهارت انهيار العار والشنار ، وما اغنت عنها مدافعها ، ولا طائراتها ، ولا أسطولها ، وان ربك ليمهل الظالم ، حتى اذا أخذه لم يفلته ·

انتهى عبد الحميد العظيم جسما ، انما لم ينته عبد الحميد روحا · اننا لا نزال ـ ولن نزال ـ نرى رأى العين ايمانه ، ونشعر بقوته ، وندرك صلابته فى الحق ، وشدته على الباطل ·

اننا نرى ازدهار الاسلام كما كان يريد · اننا نرى استقلال العرب كل العرب ، كما كان يرجو ، اننا نرى ونتمتع باستقلال الجزائر ، وبقية جهات المغرب العربى ، الذى كان يسعى اليه ، ويجاهد فى سبيله · اننا نرى اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ونرى الثانويات الدينية تنتشر وتسود رغم كيد الكائدين ، اننا نرى بلادنا حرة طليقة تنشىء الصناعة الكبرى فى البر ، وتعلو طائراتها العديدة متن الجو ، وتمتلك فوق عباب البحر أعظم أسطول فى بلاد افريقيا ، وبلاد العرب ·

ياعبد الحميد ، أمتك ناهضة ، عاملة ، ووحدتها صميمة ، وقوتها عارمة وكلمتها مسموعة ، ومبادئك سائدة ·

يا عبد الحميد الرجل العظيم · عشت مجاهدا ، ومت شريفا ، وتركت مبادىء ورجالا ، انك موجود بيننا أبدا يا عبد الحميد ـ انك لمن الخالدين ·

عباس محمود العقاد

د٠ عبد الكريم جرمانوس



ارسل الينا الاستاذ الكبير د. الحاج عبد الكريم جرمانوس ، استاذ بجامعة بودابست سابقا ، وعضو أكاديمية العلوم الاجتماعية فى المجر ، هذا الفصل من كتابه « تاريخ الأدب العربى » . ونحن اذ ننشره شاكرين للاستاذ الكبير ، نتمنى له استمرار الانتاج، وهو الذى تجاوز التسعين ، ونرجو أن يطيل الله لنا عمره كثيرا .

وننشر مع هذه الدراسة رسالة الاستاذ جرمانوس الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

(النص الكامل لرسالة الاستاذ جرمانوس
الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم)

الى سعادة الوزير العلامة مولود قاسم نايت بلقاسم حفظه الله ٠

سيدى المحترم بعد تحياتى القلبية اشكركم الدعوة للاشتراك بالملتقى بالعلماء والادباء من كل اقطار الدنيا فاننى سررت سرورا عظيما لتلك الدعوة وافتخر بالامتياز النادر الذى شرفتمونى به لكن بسبب تقدم سنى الى بداية 93 عاما أخاف من صعوبة السفر واضطراب الجنان ، وهذا حرمنى من لذة اللقاء بالعلماء الكرام مع انى اقدم سلامى وتمنياتى المخلصة الى سعادتكم وأعضاء الملتقى ٠

أنا لا أزال أواصل جهودى فى سبيل العروبة والاسلام واشكركم من صميم فؤادى ارسال مجلات الفكر الاسلامى ومجلة الاصالة التى استعمل تلك الدراسات لازيد محتويات كتابى المجرى عن تاريخ الادب العربى ٠ وبهذه المناسبة ابعث اليكم قسما من ذلك الاتى اعنى السطور التى كتبت عن صديقى المرحوم الاستاذ محمود عباس العقاد لنشرها فى مجلة الاصالة اذا امكنكم ذلك ٠ اننى اعيش فى خلوتى هنا فى بلادى وتسليتى الوحيدة المراسلة بالعلماء والادباء وقراءة المتون العلمية والآن انتظر نشر ترجمتى الى المجرية رواية تاريخية من اللغة التركية ٠٠٠ « نور بابا » التى تحتوى على حياة الدراويش البكتاشيل فى تركية اثناء القرن الماضى واضفت الى الترجمة اطروحة طويلة عن التصوف على العموم وبالخاصة على التصوف البكتاشى ، وأنا آمل ان ترجمتى عن مسرحية الاستاذ توفيق الحكيم المعنونة « الامس الهادىء » تجد دارا من ديار المسرحية فى بلادى التى نمثلها ـ اخبركم مع تأسف ـ انى حرمت من حضور عقد جلسات مجمع اللغة العربية فى القاهرة مع ان رئيس المجمع صديقى الدكتور ابراهيم مدكور ٠

دعانى مرارا وكتب باسم الزملاء خطابا شائقا متمنيا بالصحة ودوام اجتهادى لمنفعة العلم والادب ـ وفى ختام خطابى اكرر تشكراتى واتمنى لسعادتكم الصحة والنجاح بعون الله فى معاملتكم النفيسة الرسمية وبقيت مع الاحترام الفائق والاجلال مخلصكم دائما ٠

حاجى عبد الكريم جرمانوس

الى سعادة الوزير المحترم مولود قاسم نايت بلقاسم حفظه الله

سيدي المحترم بعد تحياتي الاخوية أشكركم الدعوة للاشتراك بالملتقى بالعلماء
والادباء من كل اقطار الدنيا وانني سررت سروراً عظيماً لتلك الدعوة والتقي
بالمفكرين الماهرين الذين شوقتموني به لكن بسبب تقدم سني الى بداية ٩٣ عاماً
اخاف من صعوبة السفر واضطراب الرحلات وهذا حرمني من لذة اللقاء
بالعلماء الكرام وانا ارسل سلامي وتحياتي المخلصة الى سعادتكم واصدقائي الذين
انا لازلت اواصل جهودي في سبيل العروبة والاسلام واشكركم على سعيكم في
ارسال مجلات: الفكر الاسلامي ومجلة الاصالة انها تحمل تلك الدراسات لا ازيد
محتوياتها كتابي المجرى عن تاريخ الادب العربي وبهذه المناسبة ابعث اليكم
قسماً من ذلك الاثر اعني السطور التي كتبتُ عن صديقي المرحوم الاستاذ
محمود عباس العقاد لنشرها في مجلة الاصالة اذا امكنكم ذلك. انني اعيش
في خلوتي هنا في بلادي وتسليتي الوحيدة المراسلة بالعلماء والادباء وقراءة الفنون
العلمية والآن انتظر نشرة ترجمتي الى المجرية رواية تاريخية من اللغة التركية لمؤلفة
"نور بابا" التي تحتوي على حياة الدراويش البكتاشيين في تركيا في القرن الماضي
واضفتُ الى الترجمة اطروحة طويلة عن التصوف على العموم وبالخاصة على التصوف
البكتاشي والآمل ان تجيء عن صديقه الاستاذ توفيق الحكيم المقولة الحسن الهادي
تجد داراً من ديار المجرية في بلادي التي تمثلها - انتم كريم تأسف انني حرمت من حضور
عند جلسات مجمع اللغة العربية في القاهرة مع ان رئيس المجمع صديقي الدكتور ابراهيم مدكور
دعاني مراراً وكتب اسماء زملائنا مشتاقاً متفكياً بالصحة ودوام اجتهادي لمنفعة
العلم والادب - وفي ختام خطابي اكرر تشكراتي واتمنى لسعادتكم الصحة والنجاح بعون
الله في مهمتكم النفيسة الرسمية وبعثت مع الاحترام الفائق والاجلال مخلصكم دائماً

حاجي عبد الكريم جرمانوس.

٢٩ صفر
ربيع الاول ١٩٨٠م

عباس محمود العقاد

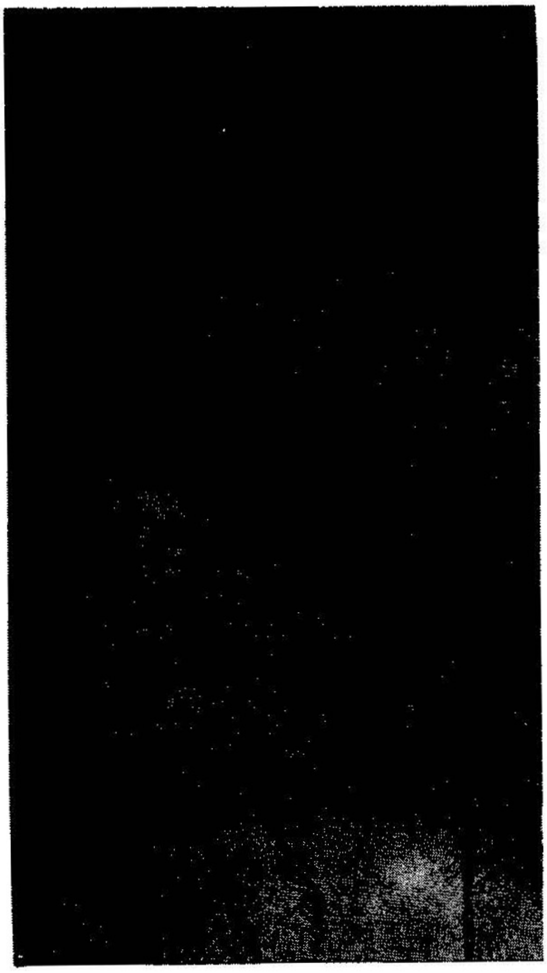
.... وهناك شخصية ادبية أخرى نشيطة ومكافحة لا تقل تدفقا عن شخصية العالم الضرير الكبير طه حسين ، ونعنى بذلك الاستاذ الكبير محمود عباس العقاد المولود فى عام 1889 ، والذى احتفل العالم العربى بذكرى عيد ميلاده السبعين وذلك فى القاهرة بمنتهى التعظيم والاجلال والاندفاع . والعقاد بدأ حياته مدرسا الا ان قسوة ارادته النادرة المثال مكنته من استيعاب تلك المعارف الغزيرة التى جعلتـــه جديرا بلقب العالم . وقد خاض الى جانب ذلك عباب الشعر . وفى ديوانه « عابـــر سبيل » الذى نظمه بلغة كلاسيكية ، نجده يوصل الينا أفكاره الفلسفية عبر أبيات أشعاره الموشحية الطابع .

ومما لا شك فيه ان قدرة العقاد الممتازة على الملاحظة بالاضافة الى موهبته ومنطقه البليغ جعلت منه كاتبا مكتملا بصورة حتمية . ومثله فى ذلك مثل السلف السابــق له فى القرون الوسطى ، كان مبدعا متعدد الجوانب غزيرا الى حد يبعث على الدهشة . ولقد عمل فى البداية مع عبد القادر المازنى ، ذلك الكاتب الذى كان على غراره فى ملاحظة وتتبع كل ما يجد حوله ، وقد ارتبط مع المازنى بعرى صداقة حميمة امتدت حتى وفاة الاخير .

والحقيقة ان المعرفين بأعمال العقاد كانوا يجدون من العسير عليهم مواكبة خطى انتاجه المدهش الغزارة . وحتى عندما حكم عليه ، لاسباب سياسية ، بالسجـن ثلاثة

اعوام فانه لم يطرح قلمه جانبا : فنراه يؤلف كتابه « عالم السجون والقيود » مستعرضا فيه حياة السجون • اما قراءتـه فقد كانت لا نهائية الحدود ، كما ان معرفته الممتازة للغة الانجليزية قد اشرعت امـامه أبـواب الادب العالمى • أما أسلوبه فيمتاز بسرعة وبخفـة تجعله لا يبحث عن الكلمات ، بل انها تنساب بيسر وبسهولة على سن يراعه ، وهى تمتاز بعـــلو مستواها ، الذى استقاه من قراءاته الكلاسيكية •

وجزء من مؤلفاته يتميز بطابع التعريف بالآثار الفكرية الاجنبية وبنقدها • مثال ذلك : « مراجعات » ، « مطالعات » و « ساعات بـين الكتب » • الا انه سرعان ما يحول وجهه عن الفلسفة الاوروبية والآثار الادبية الخاصة بها ،



عباس محمود العقاد

ويتجه صوب الفلاسفة العرب والكتاب العرب • ونتيجة لذلك كتب دراساته القيمة العميقة الغور مثل « رجعة أبى العلاء » التى تدور حول المعرى ، بالاضافة الى دراسة حول ابن الرومى ، حياته وشعره بالاضافة الى دراسة حول شعراء مصر •

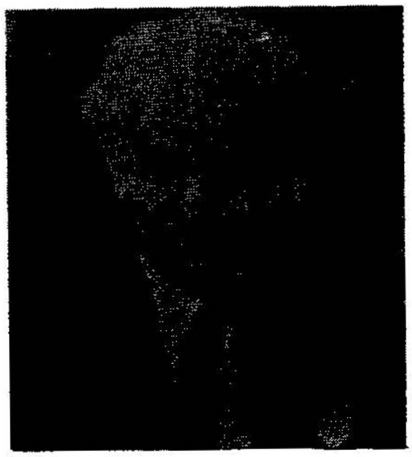
وعندما تمرس قلمه فى حقل النقد الادبى ، فانه اتجه بالدراسات الشعرية متجها جديدا ، ونتيجة تعمق فكره ، فقد بدأ يشرح المسائل المتعلقة بالحياة الاجتماعية • فقد تبين له ان الاسلام والمسلمين قد وصلوا الى مفترق الطرق ، وانهم يطحنون بين حجرى رحى ، بين الشرق والغرب • وقد كان ذلك موضوع مؤلفه « الاسلام فى القرن العشرين حاضره ومستقبله » (1954) • وفى كتاب آخر له « الديمقراطية فى الاسلام » يقدم لنا استعراضا شاملا حول نشوء الديمقراطية وحول الدور الذى اضطلعت بـه فى الاسلام • وهذا الكتاب يعتبر بمثابة التكملة والاستطراد لكتاب سابق له ، ألا وهو

« الفلسفة القرآنية » . والعقاد يرى هنا ان مفكرى القرن العشرين يرتبطون ارتباطا وثيقا بأمور الحياة الدنيا ، وهو الامر الذى يعبر عنه فى مؤلفه « عقائد المفكرين » . كما ان العقاد قد تناول الماركسية وتعاليمها الاقتصادية والخلقية بشكل عميق الغور ، مقدما فى كتابه القيم ذاك تعريفا للقـــراء العـــرب باللينينية ونتائجها العلمية . اما ابن رشد فقد كان أثيرا لديه الى درجة انه كرس مؤلفا كاملا للحديث عنه .

وفى الواقع فان النظرة المادية للعالم قد وجهت نظره صوب نقاط جديدة طرقها عبر دراساته للدين الاسلامى . فهو فى كتابه « اللــه » يكشف لقرائه كيف تشكلت فكرة ومفهوم الالوهية فى تصورات البشر . كما انشغل بقضية الوجود الحقيقى للانبياء والرسل ، وانطلاقا من ذلك كتب « أبو الانبياء » ذلك الكتاب الذى يقـــدم تعريفا بالقصص المختلفة الدائرة حول سيرة سيدنا ابراهيم . وهو يرى ان عظام مؤسسى الاديان هم فى الوقت نفسه بمثابة المصلحين الاجتماعيين ، كذلك ، وان الهدف المتوخى من وراء تعاليمهم هو تحسين الوضع الاجتماعى للبشرية . ورأيه هذا يتجـــلى فى سلسلة من الكتب نذكر منها : « عبقرية المسيح » ، « عبقرية محمد » ، « عبقرية عمر » و « عبقرية خالد » . ونلاحظ ان تلك السلسلة تتدرج ابتداء من مبدا تجلى القدرة الالهية وحتى دور العقل الانسانى ، حيث ان عمر كان رجل دولة ، اما خالد فقد كان قائدا حربيا محنكا .

لقد كان العقاد الاستاذ المعلم للشبيبة المصرية والسورية وعلى الرغم من ارتفاع مستوى لغته الكلاسيكية الطابع فقد كان يتمتع بشعبية واقبال كبير على التهام كتاباته. لقد انتقل العقاد فى شتاء عام 1964 الى رحمة ربه ، وقد كنت فى عداد من شيعوه الى مثـواه الأخـير .

من كتاب : « تاريخ الادب العربى »
بودابست ـ الطبعة الثانية ـ 1973



المسلمون بين الأصالة والتفتح

قبل ان اخط حرفا واحدا فى رسالتى عن الملتقى الثامن للفكر الاسلامى ، أرى لزاما على ، ووفاء منى ، أن اذكر بالخير استاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة ـ طيب الله ثراه ـ ، فقد كان أبرز نجوم الملتقى السابع للفكر الاسلامى ، الذى عقد فى العام الماضى فى مدينة تيزى وزو بالجزائر • وكان الحجة والمرجع الاخير عندما يحتدم الخلاف ، وعندما تتضارب الآراء •

والشيخ محمد أبو زهرة كان استاذا لالوف من القانونيين العرب على مدى الاربعين عاما التى قضاها استاذا للشريعة الاسلامية • وقد تتلمذت على يديه أربع سنوات فى قسم الليسانس بكلية الحقوق ، وأكثر من عام فى الدراسات العليا ـ قسم الشريعة ـ ، ولقد ألف أستاذنا الجليل اكثر من خمسين كتابا اثبت فيها انه من أعلم علماء العصر ، وأنه واحد من الذين أرسوا ـ على مدى قرون عديدة ـ قواعد الفقه الاسلامى •

ولعل أبرز مميزات أستاذنا الجليل ، أنه كان مقاتلا صعب المراس، يحارب ويحارب وحده من أجل الرأى الذى يراه خطأ ، وكان الجميع، حتى أولئك الذين يختلفون معه فى الرأى يقدرون فيه شجاعته الفائقة ، وجرأته النادرة ، واخلاصه للعلم الذى بلغ حد التفانى •

«*» سبق لنا ان عبرنا فى عدد 38 من الاصالة عن اسفنا عن سقوط اسم الصحفى الكبير والكاتب الاخ صبرى أبو المجد من كتاب الملتقى الثامن للفكر الاسلامى حيث نشرنا فيه المقالين اللذين نشرهما فى مجلة « المصور » ، **التى يرأس تحريرها ، بتاريخ 26 ربيع الاول** 1394 هـ • الموافق لـ 19 افريل 1974 م • عدد 2584 •

وقد وعدنا أنفسنا والقراء بنشرهما فى مجلة « الأصالة » ريثما يصدران فى الترجمة الفرنسية لكتاب الملتقى الثامن ، والطبعة الثانية بالعربية لنفس الكتاب •

ونبدأ فى هذا العدد بنشر المقال الاول . وسيصدر المقال الثانى فى العدد القادم •

لم يحبس أستاذنا الجليل يرحمه الله ، يوما ما رأيه خوفا من بطش حاكم مستبد أو تملقا للسلطة ايا كان مصدرها ، أو رغبة فى الحصول على أى مغنم من مغانم الدنيا . كان يقول (لا) حيث يجب ان تقال ، وحيث لا يجرؤ احد غيره على ان يقولها . كان يقول (لا) بصوت عال مدو ، لا يهمه رضى الناس عنها ، أو غضبوا منها ... كل الذى كان يهمه أنه يقول ما يعتقد انه الحق .

وقد كان أستاذنا الجليل ـ جعله الله قدوة طيبة لعلمائنا ـ يدفع ثمن (لا) هذه من قوته ومن حريته .

وأعود الى الكلام عن الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذى تحدثت عنه فى الاسبوع الماضى بصفة عامة ، فاقول انه عندما هطلت الامطار بغزارة وحوصرنا فى فندق الحماديين على بعد سبعة عشر كيلو مترا من مدينة بجاية اصر الاخ الصديق مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر و « دينامو » الملتقى على ألا نضيع الوقت فى الفندق ، فدعا الى تشكيل لجان الملتقى لتعمل فورا فى الفندق ، وكانت اللجنة التى وقع الاختيار على للاشتراك فيها هى لجنة (الاصالة والتفتح) . وبعد أن اخترنا لرئاسة اللجنة شرفيا وعمليا د . زكى نجيب محمود استاذ المنطق الوضعى بكلية آداب القاهرة ، والاستاذ عبد الله بن بيه وزير العدل فى الجمهورية الموريتانية الاسلاميـــة ، بدانا الحديث عن معنى الأصالة والتفتح وكيف يمكن الاخذ بالاصالة أو بالتفتح ، أو بهما معا .

ووجدنا اختلافات كبيرة فى الاراء ، بعضنا نادى بالانغلاق التام ، بحيث نضع انفسنا داخل ستار حديدى ، لا نتصل بأحد ، ولا ندع أحدا يتصل بنا . لا نؤثر فى أحد ولا نتأثر باحد ، وبعد ربع قرن من الزمان على الاقل نبدأ فى ازاله الستار الحديدى .

وبعضننا نادى بالانفتاح الكامل على الحضارة الغربية ، بحيث تكون هى الاساس ، وهى المورد ، وبحيث تكون حضارتنا الاسلامية ليست الا مجرد تراث نقرؤه ، أو نترحم عليه ٠

ووجدنا البعض منا ينادى بأن تستمر المسيرة فى طريقها تأخذ من الحضارة الاسلامية أغلى وأثمن وأبقى ما فيها ٠ ونأخذ من الحضارة الغربية فى الوقت ذاته ما يتلأم ومصالحنا وظروفنا وتقاليدنا وطبيعة العصر ٠

وقد فوجئت بواحد من الاساتذة المصريين الذين يقومون بالتدريس فى الجزائر منذ أربع سنوات يتحدث عن الجامعات والمدارس المصرية حتى رياض الاطفال بقسوة ، بل انه كان يتحدث عن الازهـــر وله عليه فضل كبير بمرارة ٠٠٠

لم يترك الاستاذ المصرى ـ غفر الله له ان كان ما فعله يقبل المغفرة ـ شيئا فى مصر الا وانتقده ٠ وكان يتحدث بلهجة جزائرية متوهما انه بذلك يرضى الاخوة الجزائريين ٠

ورفضت أن أرد على (الاستاذ المصرى) بل ـ وارجو ان يعذرنى زملائى فى لجنة الأصالة والتفتح ـ تعففت عن الرد عليه ، فمثل هؤلاء الذين يتصورون ـ بجهلهم ـ أن اطالة مدة اعارتهم لدى بلاد شقيقة يتوقف على درجة قسوتهم فى الهجوم على بلادهم ، لا يستحقون أى نوع من الاهتمام ٠٠٠ فالذين لاولاءلهم لبلادهم التى ربتهم ، وعلمتهم وانفقت عليهم من أقوات عمالها ، وفلاحيها وأبنائها البسطاء حتى نالـــوا الدكتوراه الـــتى أهلتهم ليكونوا أساتذة يعارون الى بلاد شقيقة ، لا يمكن أبدا ان يكون لديهم أى نوع من الولاء لاى بلد من بلاد العالم ، ومن بينها التى يتملقونها بأحط أنواع التملق ! !

وقد تساءلت فيما بينى وبين نفسى ، وانا اغادر قاعة اللجنة أمثل هذا الاستاذ يمكن ان يفيد تلاميذه ؟ أو يمكن ان يكون قدوة لهم ٠٠٠ وخرجت من تساؤلى بما اعتقد انه الرد الصحيح : ان هذا المدرس

لا يمكن ان يفيد تلاميذه وبالتالى لا يمكن ان يكون قدوة لهم ، كما انه لا يمكن ان يفيد نفسه لا على المدى القصير ولا على المدى الطويل ٠

وعندما اتجهنا الى مكان الملتقى فى مدينة بجاية بعد زوال حالة الحصار تحدثت الى د ٠ عبد الكريم سايتو ، استاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو ، وهو الرجل الذى اسلم مع أسرته ، وسألته عن انتشار الاسلام فى الشرق الاقصى ، وكان من بين ما قاله انه بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه بنحو عشرين سنة اعدت بعثة اسلامية وصلت الى عاصمة الصين فى دولة تانج كما ان التجار المسلمين من اليمن وحضرموت ومسقط وعمان وصلوا الى بورما وماليزيا وسومطرة وجاوة والفيلبين منداناو ٠ كان ذلك فى فجر الاسلام ، ولم يدخل الاسلام اليابان الا فى عام 1875 عندما نشر كتاب عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم باللغة اليابانية ٠ وأول مسلم يابانى كان ب ٠ أريحا الذى اعتنق الاسلام بعد الحرب الصينية ، اليابانية 1895 ٠ وأول مسجد بنى فى اليابان كان عام 1935 بأيدى التجار المسلمين الاجانب وفى اثناء الحرب العالمية الثانية أسلم عدد كبير من البحارة والجنود والمدنيين الذين عملوا بالخارج ٠

وحول الدعوة الى الاسلام فى اليابان يقترح د ٠ سايتو انشاء مركز اسلامى ضخم يكون منارة المسلمين فى بلاد الشمس المشرقة ٠ ومن الحديث عن المسلمين فى بلاد الشمس المشرقة ننتقل فجأة الى الحديث عن مسلمى الدانمارك : يقول الاستاذ الشريف أحمد نائب رئيس المركز الثقافى الاسلامى فى الدانمارك ٠ ان المسلمين يكثرون ويتزايدون فى البلاد الإسكندنافية ، وفى مدينة أورهوس يوجد أكثر من ألفى مسلم ٠ ومهمة المركز الاسلامى فى تلك المدينة تنمية الروابط الروحية بين المسلمين المقيمين بأورهوس وفى نفس الوقت ابراز التفاهم المتبادل والصداقة بين الاسكندنافيين والعالم الاسلامى ٠ ويصارحنى الاخ الشريف أحمد بأن المشكلة التى تعترضه كوالد ، كما تعترض زملاءه المسلمين فى الدانمارك مسألة تعليم أطفالهم

اللغة العربية • ويتمنى لو أنهم تمكنوا بأى ثمن من ارسال أطفالهم الى بعض رياض الاطفال فى القاهرة حتى يشبوا على تعلـم اللغـة العربية • ويطلب الشريف أحمد باسم المركز الثقافى الاسلامى من المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية تزويد المركز بالكتب الدينية ، كما يطالب وزارة التربية التعليم بارسال الكتب التى تتعلق بتعليم اللغة العربية حتى تتمكن الدانماركيات المتزوجات بالمسلمين من تعلم اللغة العربية • ومن الدانمارك أنتقل الى فرنسا ، وأنجلترا وايطاليا ، والعديد من البلدان الاوروبية ، والامريكية التى توجد بها أقليات مسلمة ، وأستمع الى أكثر من رجاء وأتمنى من البلدان الاسلامية التى تملك فيضا من المال ، لو أن تعين هؤلاء المسلمين على انشاء المراكـز والمدارس الاسلامية ، والمساجد التى هم فى أمس الحاجة اليها •

وأغرق فى الابحاث العديدة التى قدمت للملتقى أو التى ألقيت فيه ، ويجذبـنى أكثر من أى موضوع آخر كل ما قيل فى الأصـالة والتجدد ، وما كتب عن الفكر الاسلامى ، آثاره وأسباب قوته وضعفه، ويعجبنى تركيز المحاضرين والمشتركين فى المناقشات على أن الاسلام دين عقل ، وتفكير ، وتعجبنى كلمة للاستاذ عبد الله بن بيه يقول فيها « الاصالة هى الحرية ، والثقة بالنفس فى مواجهة الشخص لذاته ، وفى مواجهته لغيره ، وبهذا التحديد ، يمكن أن نعتبر الاصالة بعدا من أبعاد عدم الانحياز • فاذا كان رفض السيطرة السياسيـة والاقتصادية والعسكرية يعتبر المفهوم الجديد الذى يعطى فكرة عدم الانحياز الحيوية الضرورية فان الرفض المسبق للآراء والافكار التى صيغت فى بيئة مغايرة ، وطبق أوضاع أخرى هى أوضاع الغـير ، يعتبر المفهوم الحقيقى للاصالة ويجنبها الجمود••• اننا ننادى بالرفض الايجابى الذى يعنى المساواة بين ابناء البشر الذين يجب ان يفكـروا جميعا، والا تصاغ لبعضهم قوالب يجد نفسه عاجزا أمامها عن التفكير، ان الاصالة موقف ايجابى من الحياة ، ومبدأ حى له تأثيره فى مسيرتنا اليومية ، وما هى بالماضى ولا بالحنـين الى الماضى ، انها الحـاضر ، والمستقبل الغنيان بتراث الماضى وتجاربه»•

وتعجبنى كلمة للدكتور الحبر يوسف نور الدائم الاستاذ بكلية الآداب ، جامعة الخرطوم يقول فيها : (هناك خداع وتضليل من كثير ممن تاثروا بالحضارة الغربية ، اذ يزعمون أن الحضارة لا تتجزأ، فهى اما أن تؤخذ جملة أو تترك· وهؤلاء يريدون لنا أن نكون حطاب ليل نأخذ الغث والسمين كأننا مشلولو الارادة ··· نحن نريد أن نأخذ بأسباب العلم لان ديننا يدعونا لذلك ، وهو يعد حقا من حقوقنا شاركنا فيه مشاركة فعلية · لا نريد أن نرث أمراض القوم وآفاتهم ··· ان ظلام الجهل المتراكم لا يقطعه الا نور المعرفة الوهاج، والمعرفة لا تنال الا بالجهد الدائب ، وليست المعرفة ترفا ذهنيا ، ولا حيلة ترتدى ، وانما العبرة بما تخلفه من أثر فى النفس وفى الشعور).وقد سئلت عن رأيى فى موضوع الاصالة والتجدد ، وموضوع الفكر الاسلامى ؛ آثاره وأسباب ضعفه وقوته ، وقلت كلاما كثيرا فى هذا الموضوع كان ملخصه : ان الذى يجب أن نعترف به دون خجل من أنفسنا أننا كمسلمين دول متفرقة وممزقة ، ظلت قرونا عديدة تحت سيطرة الغير الذى احتلها ، وأذلها ، ونجح الى حد كبير فى ابعادها عن أداء دورها الانسانى الذى يؤهلها للقيام به دين الاسلام · ولقد ساعدنا بأنفسنا العدو على تحقيق أغراضه عندما هنا على انفسنا ، وهنا على غيرنا ، وعندما ابتعدنا عن جوهر الاسلام مكتفين بالقشور ، والمظاهر ؛ والذى لا شك فيه أننا نصحو الآن ، ودليل ذلك أننا نبحث عن أسباب تخلفنا الآن ، وتقدمنا فى الماضى ؛ والذى يجب أن ندرسه بعمق وفهم ووعى هو : لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا ؟ ولماذا كنا سباقين فى قرون مضت ، وكان الغير متخلفا ؟ ؟ والرد على هذه الاسئلة هو الطريق الى الصواب ·

اننى أضيف الى ما سمعته من الاخوة الذين حاضرونا فى أسباب تخلف المسلمين حاليا ، وأسباب تقدمهم فى الماضى ، سببا واحدا أرا ه من أهم اسباب التخلف ، ذلك أننا افتقدنا القدوة الصالحة ، كما افتقدنا حرارة الايمان · ويوم أن توجد لدينا قدوة صالحة تتحمل الموت من أجل المبدأ الذى تؤمن به ، ويوم أن تكون لدينا حرارة الايمان التى كانت موجودة عند أسلافنا ؛ يومئذ نعود كما كانوا :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ·

المرأة التركية وقرارات مؤتمر مكسيكو (1)

بريكان اريبوران
نائبة سابقا فى البرلمان التركى
ورئيسة الجمعية الوطنية لقانون
المرأة التركية ـ انقرة ـ تركيا



ان مشكلة المساواة فى الحقوق بين المرأة والرجل مشكلة مطروحة فى عالمنا اليوم الذى تهزه الشروط الجديدة المتولدة عن تقدم التكنولوجيا • وهذا المشكل مطروح كذلك فى تركيا ، حتى بعد الاصلاحات التى أدخلت بتأثير مؤسس الجمهورية مصطفى كمال اتاتورك •

لم يكن عدد سكاننا يتجاوز أحد عشر مليونا حين أعلنت الجمهورية عام 1923 • ونحن اليوم نقارب ثلاثة وأربعين مليونا • وهناك عدد كبير من النساء يطالبن بممارسة الحقوق التى منحتهن اياها الجمهورية • هذه الحقوق المكتسبة من حيث المبدأ أصبحت تمارس على نطاق واسع • والاجيال الجديدة من النساء الاكثر نشاطا من أمهاتهن يواجهن ظروفا من العيش أقسى وأصعب • وحاجيات مجتمعنا الجديدة تتطلب

(1) محاضرة القتها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورجلان (ورقلة ـ صدراته) 17 ـ 26 صفر 1397 هـ ، 6/15 فبراير 1977 •

تخصصات مهنية • ولم يعد الامر يتعلق بمبادىء المساواة فى الحقوق بل بتطبيق هذه المبادىء •

وتمهيدا لمؤتمر ميكسيكو ، اجتمعت سبع وعشرون جمعية من جمعيات النساء التركيات لانتخاب ممثلاتها فى هذا المؤتمر • وقد وقع اختيارنا على امرأة هى عميدة جامعة ، وعلى امرأة محامية ، وامرأة أخرى طيارة تحمل رتبة قائد فى الجيش التركى • وقد شعرنا ، فى تلك المناسبة ، بالحاجة الى تحديد مشاكلنا الراهنة أثناء ملتقى عقد بمدينة أنقرة من الخامس الى الثامن ديسمبر 1975 •

ولقد كان لى شرف افتتاح الملتقى باسم الجمعيات النسائية التركية السبع والعشرين بتلخيص مقترحاتنا فى الفصول الآتية :

1 ـ أن يكون للنساء عدد أكبر من الممثلات فى البرلمان •

2 ـ قبول المرأة فى صفوف الجيش •

3 ـ ادخال تعديلات أو تحويرات على القانون المدنى والجنائى •

4 ـ تشكيل فرق عمل يعهد اليها بمهمة دراسة مشاكل المرأة ضمن اطار الادارة •

5 ـ رفع مستوى شروط معيشة المرأة الريفية فى مجالات التربية الحضانية ، والمدرسية ، وعلى صعيد عقلنة تخطيط نمو العائلة ، وفى ميدان العلاقات الاجتماعية.

وهذه النقطة الاخيرة تشكل احدى توصيات مؤتمر ميكسيكو •

6 ـ الضمان الاجتماعى للمرأة الريفية ولربة البيت •

7 ـ ادخال تعديلات توافق المرأة على القوانين الخاصة بالاحالة على المعاش، وصندوق التقاعد •

8 ـ استفادة المرأة الموظفة أو العاملة فى حالة ولادتها بعطلة مدفوعة الاجر مدتها عام كامل •

9 ـ تمكين المرأة ربة البيت من ممارسة مهنة لمدة بضعة أيام فى الاسبوع •

10 ـ دفع كل زوج على حدة ما يترتب عليه من ضرائب ٠

11 ـ الاستغلال الافيد لوقت فراغ الفتيات ٠

12 ـ اجراء بحوث على الآثار الثقافية التى تنتجها العبقرية النسائية ٠

13 ـ الدراسة المجددة لقانون حماية الاطفال المهملين ومراقبة كتب مطالعة الاطفال ومسرح الطفولة ٠

14 ـ تطبيق هذه المبادىء على النساء التركيات العاملات فى الخارج ٠

15 ـ اعداد برنامج لتأمين تعاون المؤسسات القائمة ولتأسيس مؤسسات جديدة صالحة لحماية حقوق المرأة ٠ واستعمال الاذاعة والتلفزة لهذا الغرض ٠

16 ـ التعاون مع المؤسسات الدولية ٠

ولقد كانت مقترحاتنا مرتكزة على المبدأ القرآنى القائل : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** » (القرآن ، السورة 2 الآية 228) ٠

وبعد هذا الملخص للمشاكل التى كان علينا ان نواجهها ، واصلنا أعمالنا ضمن خمس لجان مختصة تعنى بالمشاكل القانونية ، والاقتصادية ، والتربوية ، وتهتم بقضايا الفن والصناعة التقليدية وبحفظ الصحة ٠

واقترحنا كذلك ادخال تعديلات على القانون المدنى فى مواده التى تنص بأن « الزوج هو رئيس الاسرة » و « لا يجوز للمرأة أن تمارس فنا من الفنون أو مهنة من المهن الا برخصة من الزوج » ٠

وطالبنا بالتطبيق الكامل للمواد الآتية : « فى حالة وفاة أحد الزوجين ، يرث الزوج الباقى على قيد الحياة والذى لا ولد له كامل تركة الهالك » ٠

والزواج بمقتضى الشريعة أو الدين لا يتم الا بعد الاستظهار بعقد الزواج المدنى ٠ ويرمى هذا البند الى القضاء على تعدد الزوجات ٠ هذا ملخص القرارات التى اتفقت عليها الجمعيات النسوية التركية ٠

وقد تشكلت لجنة خاصة لدى وزارة العدل منذ ما يقرب من عام لبحث مدى امكانية تعديل القانون المدنى لصالح المرأة ولحد اليوم انكبت هذه اللجنة المتألفة من

35 خبيرا واختصاصيا على دراسة القانون الاساسى للمرأة الام • وهكذا يحاول حماية المرأة المتزوجة من الضغوط الزوجية بالغاء وجوب حصول المرأة على اذن من زوجها ، من أجل الضمان فيها • ومن المشاكل المطروحة أيضا قضية المسكن الشرعى • هل يجوز للمرأة المتزوجة ان يكون لها مسكن شرعى غير مسكن زوجها ؟ وهذه المشكلة مطروحة فى حالة المرأة التى يوجد مكان عملها بعيدا عن مكان عمل زوجها • وفى حالة قيام نزاع ، يتعين عليها أن تلجأ الى المحاكم الموجودة فى مكان عملها •

ومسألة التساوى فى الحقوق مطروحة أيضا فى تركيا بصدد سن زواج القصارى والمرأة المعتبرة عادة كما لو كانت أسرع نموا من الرجل يمكن أن تتزوج فى سن أدنى من الرجل على شرط ان تحصل على اذن من وليها أو من أبيها • وأرى لزاما على أن أضيف شهادة رجل شهير من رجال القانون الذى قال لى : « اننا لا نصادف ـ فيما يتعلق بالمساواة فى الحقوق بين المرأة والرجل ـ أى اعتراض فى تركيا » •

وهكذا يمكن أن نخلص الى أن التوصية الرئيسية لمؤتمر ميكسيكو والمتمثلة فى تحقيق المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق فى غضون السنوات العشر التى تلى عام 1975 قد وجدت بتركيا أصداء ملائمة •

الدراسات العربية والاسلامية في أوروبــا

الدكتور محمد أركــون
استاذ الفلسفة الاســلامية
بجامعة السوربون الجديدة ــ باريس

بسم الله الرحمن الرحيم ،

اخوانى الكرام ، السلام عليكم وبركات الله ،

اسمحوا لى أولا أن أشكـــر سيدى الوزير الذى شرفنى مرتين باستدعائه اياى الى المشاركة فى ملتقى تلمسان ثم فى ملتقى عنابة ، فإنى ، كما قلت له مرارا ، حريص كـل الحـرص على الاتصــال الوثيق بالواقع الاسلامى فى جميع البلدان الاسلامية وبصفة خاصة فى القطر الجزائرى الذى أصبح منذ الاستقلال مخبـرا اجتماعيا فائق الاهمية . ذلك ان الباحث العلمى لا يطمئن قلبه ولا يسكن عقله حين يعالج موضوعات صعبة الا اذا احتنك بالواقع الذى يدرسه ويحلله ، ولذا فانى مسرور جدا ومتشرف بهذا اللقاء حيث سنتبادل الآراء فى موضوع يهمنا كلنا وهو الفكـــر الاسلامى ومصير الاسلام فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة .

(*) محاضرة ألقيت ارتجالا فى المركز الثقافى الاسلامى التابع لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينـية .

انما اخترت أن أحدثكم عن الدراسات العربية والاسلامية بأوروبا تلبية لاقتراح تفضل به سيدى الوزير حين كاتبنى ، وصادف أيضا انى شاركت منذ شهر جوان الماضى فى 3 مؤتمرات انعقدت بأوروبا : احداها بمالطة وقد حضره عدد من الاخوان الجزائريين ، والثانى بايكس ايمروفانس Aix-en-Provence وهو المؤتمر الثامن للجمعية الاوروبية من المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية Union Européenne des Arabisants et Islamisants ، والثالث بباريس خصص لاحياء ذكرى السنة 850 من ميلاد ابن رشد • وفى هذه المؤتمرات، كما سنرى، دليل على الاهتمام المتزايد عند الاوروبيين، بالدراسات العربية والاسلامية •

وسألتزم فى حديثى هذا الطريقة التقديمية والوصفية مجتنبا ما تعودناه فى البلدان الاسلامية من المهاجمة على « المستشرقين » والرفض الجازم لما انتهوا اليه من نتائج فى البحوث الاسلامية • ولا أعنى بذلك أنى أوافق هؤلاء العلماء فى جميع مواقفهم ومناهجهم ، الا انى أريد أن أساعد على خلق جو جديد للتعاون والتفاهم بين العلماء المسلمين والعلماء الغربيين الذين يخصصون جهودهم لاحياء التراث الاسلامى ولتقديم صورة صادقة موضوعية للاسلام • ولن نوفق الى إحداث هذا الجو الجديد الا اذا انتقلنا من الجدال العقيم المبنى على سوء التفاهم أو الايديولوجيات السياسية ، الى مستوى الانتقاد الايبستمولوجى لجميع ما ينتجه الانسان من معلومات ونظريات فى أى ميدان من ميادين المعرفة •

اذا ألقينا على الدراسات العربية والاسلامية بأوروبا نظرة تاريخية ، أمكننا ان نميز بين مرحلتين رئيسيتين : مرحلة أولى طويلة تتسم بالاكتشاف والاستخدام ، ومرحلة ثانية بدأت فى الستينات من هذا القرن،تتسم بالتفتح العلمى والتضامن البشرى فى الاهتداء الى حقائق الامور على حد قول القدماء من مفكرى الاسلام • سأكتفى باشارات سريعة الى هاتين المرحلتين ، ومن يريد التوسع فى البحث عن المرحلة الاولى يمكنه ان يراجع كتابا قيما للباحث الانجليزى Norman Daniel : الاسلام والغرب أى : Islam and the west;the making of an image, Edinburg 1960.

وكتابا آخر للاستاذ J. Waardenbucq : الاسلام فى مرآة الغرب ، أى :
L'Islam dans le miroir de l'Occident, Paris 1968

I) مرحلـة الاكتشـاف والاستخـدام

تمتـد هذه المرحلة من القرون الوسطى الى النصف الاول من القرن العشرين · وبما ان هذه المدة طويلة جدا ، فانها تنقسم الى مرحلتين ثانويتين وهما مرحلة القرون الوسطى بالمعنى الجارى فى تاريخ الغرب ، والمرحلة « العلمية » بعد القرن 16 · ولكن هاتين المرحلتين الثانويتين تغلبت فيهما النزعة الايديولوجية إما فى مظهرها الاوثولوجى فى القرون الوسطى (الجدال الدينى والمحاربة بين المسيحية والاسـلام) واما فى مظهرها السياسى بعد القرن 16 عندما تغلب التيار العقلانى الايجابى اللائكى بالغرب ·

1) مرحلـة القـرون الـوسطى

من المعلوم ان عددا كبيرا من المؤلفات العربية فى الفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية قد ترجمت الى اللاتينية واحدث فى الغرب اللاتينى المسيحى تيارا فكريا قويا بحيث ان المفكر المسيحى الشهير طوماس الاكوينوس تاثر بعقلانية ابن رشـد فى كتابه Somme contre les gentils وقد بدأ مؤرخو الفكـر بالغرب يعتنون بتحقيق الترجمات اللاتينية ليبرزوا ما يرجع للنشاط العلمى العربى من الفضل فى توجيه الفكر الغربى نحو مواقف علمية وتقوية الجانب العقلانى · وهذا مما يفتخر به العرب اليوم ، ردا على من احتقر المدنية العربية ووصف الاسلام بالغباوة فى عهد الاستعمار · ويجدر بنا ان نلاحظ ان هذا النوع من الافتخار والمباهاة يعمى العرب والمسلمين عن وضع أهم سؤال لابد منه : لماذا يا ترى ، رحب المجتمع اللاتينى المسيحى بفلسفـة العرب وعلومهم بعد القرن 12 ؛ لماذا احدث ابن رشد،بصفة خاصة،ثورة عقلانية بالغرب بينما المسلمون عدلوا عن تلك الثروة الفكرية ودفنوا ابن رشد ، مثلا ، دفنتين جسمية وروحية ؟ وقد اجمع المؤرخون المعاصرون على ان المفكر أو العالم أو الاديب مهما بلغ من النبوغ والانتاج الثمين ، لا يبقى حيـا منعشا للمدنية الا اذا توفرت فى المجتمع استعدادات ثقافية وأوضاع اقتصادية مزدهرة ونظم سياسية حامية لكرامة الانسان .

يعنى هذا ان النظـر السوسيولوجى لوظيفة الفكر العربى فى المجتمع اللاتينى المسيحى والمجتمع العربى الاسلامى بعد القرن 12 ينتهى بنا الى حقائق هامة ما زلنا

نجهلها • فان الغرب قد استخدم الجانب العقلاني العلمي من الفكر العربي لتطوير المجتمع ورفع مستوى المعارف ، بينما اعتكف المسلمون على تقليد المذاهب السنية عند أهل السنة والجماعة ، ومذهب الاشراق عند أهل العصمة والهداية اعنى الشيعة.

ومن علماء الغرب الذين تلقوا الجانب الايجابي من الفكر العربي نذكر على سبيل التمثيل (1187 ـ 1114) Gérard de Crémone و (92 ـ 1214) Rogers Bacon و (1316 ـ 1235) Raymond Lull و (58 ـ 1400) Juan de Ségovie و (1464 ـ 1401) Nicolas de Cues ••• ولكن لا ننسى ان هؤلاء المفكرين عاشوا في عصر تغلب فيه النظر الديني الدوغماتي ، ولهذا لا يخلو احدهم من النزعة الجدالية لتبيين تفوق المسيحية على الاسلام وان الحق محصور في الاولى دون الثاني ، ولكن لا ننسى أيضا ان نفس النزعة الجدالية الدوغماتية كانت سائدة عند المسلمين أيضا • وكان المصطدمون في الحروب الصليبية يتغذون بهاتين الايديولوجيتين المتنافيتين •

2) المرحلة «العلمية»

من المعلوم ان القرن 16 يعتبر نقطة انطلاق لعصر جديد في تاريخ الفكر الغربي • ولابد هنا من ذكر الحوادث التي أقلقت الافكار وقلبت الاوضاع ووسعت الآفاق العلمية بحيث انطلق الغرب في سير الى الامام دون سائر الامم في العالم :

ـ في سنة 1440 اخترع الالماني Gutenberg الطباعة وفي سنة 1448 نشرت الطبعة الاولى من التوراة ، وحسبنا بالاشارة الى ان الطباعة العربية انما استخدمت سنة 1835 لطبع جريدة الوقائع المصرية ـ وفي سنة 1543 نشر كتاب Copernic في النظام الشمسي فانقطعت بذلك الصلة بين تصور العالم الخاص بالقرون الوسطى والتصور الجديد الذي انبنى عليه تطور العلوم الى يومنا هذا •

ـ وادى كذلك اكتشاف القارة الاميركية بعد سنة 1492 الى تصحيح صورة الارض وتوسيعها بالنسبة الى ما كانت عليه عند الجغرافيين العرب •

ـ اما في ميدان الفلسفة وعلوم الدين فإن الحركة المعروفة بالنهضة والاصلاح ، ترتب عليها نظر جديد الى التاريخ والدين فاصبح العلماء يخصصون اهتمامهم لتخريج

النصوص اللاتينية واليونانية القديمة تخريجا فيلولوجيا دقيقا وذاع بهذا ما نسميه اليوم المنهاج الفيلولوجي الذى لم يتقيد بــه العلماء المسلمون لتخريج المخطوطات العربية القديمة الا بعد الخمسينات بل الستينات من قرننا العشرين !!! وناهيكم دليلا على هذا ان كتبا قيمة كالمقدمة لابن خلدون أو احياء علوم الدين للغزالى أو آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ... لم تحقق بعد تحقيقا فيلولوجيا مقبولا . اما المخطوطات العربية التى لم تــزل مدفونة فى المكتبات لقلــة الباحثين المسلمين المكونين تكوينا فيلولوجيا مرضيا ، فانها ، كما هو معلوم . كثيرة جدا وموزعة فى العالم .

قد يسأل سائل ويقول ما علاقة هذا كله بالدراسات العربية والاسلامية بأوروبا ؟ أريد أن أنبه الى أمرين مهمين بمكان لجميع الذين يحرصون عــلى تجديد الدراسات العربية والاسلامية ورفع مستواها العلمى اليوم : اما الامر الاول فهو التخلى عــن مهاجمة « الاستشراق » دون تفهم الاصول التاريخية التى انطلق منها ذاك التيار الثقافى الذى سيزدهر بأوروبا الامبريالية فى القرن 19 كما سنرى .

واما الامر الثانى فهو استشعار العرب المعاصرين المنوهين بالتراث ، بان هناك ما يسميه مؤرخو الفكــر القاطعــة الايبستيمولوجية la coupure épistémologique أى التغير الجذرى فى العاقل والمعقول الذى استتبعته الاكتشافات والاختراعات فى القرن السادس عشر بأوروبا . ومعنى هذا اننا يمكننا أن نفتخر افتخارا وجدانيا بما انتجه المسلمون فى القرون الخلاقة ، بشرط ان نستشعر فى نفس الوقت ان المقدمات والاصول التى انبنى عليها « العلم العربي » فى تلك القرون الخلاقة ، قد تزعزعت ثم تركت بعد القرن 16 . وعقلانية ابن رشد مثلا ، مهما بلغت من الاهمية فى القرون الوسطى ، لم تعد صالحة اليوم فى الدراسات العلمية التى تعتمد على مواقف منطقية متعــددة Logiques plurales

وقد كان للاتجــاه العلمى السائد فى القرن 16 أثــر فى الدراسات العــربية والاسلاميــة . أنــشىء الكرسى الاول لتــدريس العربيــة فى Collège de France عام 1539 واشتغله Guillaume Postel (1581 ـ 1510) الذى جمع عــددا كبيرا مــن المخطوطات، وأنشئ كذلك كرسى بأكسفورد Oxford عام 1638 واشتغله Edward Pocock

وفى عام 1680 صـــدر بالنمسا معجـــم اللغـــة التركيـــة لـ Franz Meninski
ولـ B. d'Herbelot (1625 ـ 1695) كتاب ضخم فى المكتبة الشرقية ، وللهولندى
Thomas Van Erpe (1584 ـ 1624)أول مؤلف فى النحو العربى •

وازداد الاهتمام العلمى بالشرق عامة فى القرنين 17 و 18 • ومما يدل على ذلك
ان الفرنسى A. Galland اصدر ترجمته لالف ليلة وليلة بين 17 ـ 1704 واعتنى
كثير من الفلاسفة والعلماء كـ :
Pierre Bayle,Richard Simon, Leibniz, Georges Sale, Simon Ockley, Edward Gibbon, Voltaire,...
باكتشاف جوانب مجهولة من المدنية الاسلامية ... واستخدامها لاغراض ثقافية أو سياسية
كما فعل Voltaire بصفة خاصة • لا يتسع لنا المجال لتفصيل اعمال هؤلاء وعلى من يريد
التوسع فى الموضوع ان يراجع مقالة قيمة لزميلى M. Rodinson (1) •

ولم تنقطع النزعة الاستخدامية فى القرن 19 اذ نجد رجـــال السياسة القائمين
بنشر الاستعمار فى البلدان الاســـلامية يتوجهون الى المتخصصين فى الدراسات
الشرقية ليستمدوا من كتبهم ما لابد منه من المعلومات لتدبير شؤون « الاهـــالى »
indigènes واستخدام الادارة الاستعمارية للدراسات الشرقيـــة معـــروف شائـــع
بالجزائر خاصة • على ان الاهتمام العلمى ما زال يتوسع ويتعمق منذ غزو بونابارت
لمصر حيث بدأ التفتيش الاثرى عن المـــدنية الفرعونية • وفى النصف الاول مـــن
القرن 19 أسست الجمعية الآسوية بفرنسا (1821) التى تصدر مجلة منذ عام 1823
الى يومنا هذا ، والجمعية الملكية الآسوية ببريطانية (1834) والجمعية الشرقية الامريكية
(1842) والجمعية الشرقية الالمانية (1849) ، ولكل منها مجلة •

ونستبين هـــذا التفتح للشرق عند المسافرين والادباء كهوغو ولامارتين ونيرقال
وفلوبير وغـــيرهم • وفى هذا العصر ظهـــرت الدراسات التاريخية المشهـــورة لـ
Wellhausen, De Slane, L. Caetani, R. Dozy, A. Sprenger, M. Amari, A. Von Kremer, H. Grimme, Th. Nöldeke, K. Brockelmann, I. Goldziher, E. Renan, B. de Meynard, Carra de Vaux,
وغيرهم • ومما يجدر بالذكر فى هذا المضمار ان تاريخ الادب العربى لـ K. Brockelmann

(1) M. Rodinson : *The Western Image and Western Studies of Islam,* in the legacy of Islam, 2e ed. by J. Schacht and C.E. Bosworth, Oxford 1974.

لا يوجد له نظير بالعربية الى يومنا هذا ، وقد واصل تأليفه العلامة التركى فؤاد سيزغين بالالمانية • ولم يترجم من تلك المصادر القيمة للتراث العربى بالمعنى الصحيح الا 3 مجلدات خفيفة رديئة العرض والتبويب ، قليلة الفائدة • ولا أقول هذا استطالة على الزملاء العرب وانما أقصد سد الثلم واستدراك النقص فى احياء التراث •

وما دمنا نعرض للانتاج العلمى عند الاوروبيين فى القرن 19 والنصف الاول من القرن العشرين ، فلابد من الاشارة الى دائرة المعارف الاسلامية التى تمت الطبعة الاولى منها فى 4 مجلدات سنة 1937 (وقد صدرت الكراسة الاولى سنة 1907) وقد شرع العلماء فى اعداد طبعة جديدة مزيدة منقحة ، سنة 1954 ، وقد صدرت 3 مجلدات الى هذا اليوم • ومن يريد ان يدرس اتجاهات علماء الغرب فى الدراسات الاسلامية منذ 30 سنة ، فانما عليه ان يتأمل هذه الموسوعة المحيطة بجميع جوانب الحياة والمعرفة فى المجتمعات الاسلامية فى ماضيها وحاضرها •

أما الانتاجات فى الفنون العلمية المختلفة ، فلا يمكن احصاؤها هنا ، وقد استوعب ذكرها J. D. Pearson فى فهرست بعنوان دليل الدراسات الاسلامية Index **Islamicus**

II) <u>مرحلة التعاضد فى البحث العلمى</u>

مهما بلغت الدراسات الاسلامية بالغرب من الاهمية من حيث العدد والالمام بالمعلومات المفصلة ، فانها بقيت متقيدة بالمنهاج الفيلولوجى (وهو كما قلنا منهاج ضرورى فى تحقيق النصوص القديمة) ومقدمات التاريخ الراوى L'histoire - récit الذى يكتفى بسرد الحوادث والاسماء المشهورة على طريقة الحوليات عند المسلمين القدماء • ومعنى ذلك ان الاغلبية من الباحثين الاوروبيين عن الاسلاميات ما زالوا منعزلين ومعتزلين فى بيئتهم الجامعية فانهم لم يؤثروا بمؤلفاتهم على الاتجاهات العلمية السائدة ولم يتاثروا بالاتجاهات الجديدة التى بدأت تظهر بعد الثلاثينات فيما نسميه اليوم العلوم الانسانية •

وسأضرب مثلين لتوضيح المقصود • فى سنة 1955 نشر Claude Cahen أستاذ تاريخ الشرق الاسلامى بالسوربون،مقالة تعتبر بيانا لتطبيق مناهج جديدة وفتح

ميادين مجهولة فى تاريخ المجتمعات الاسلامية (2) • وفى الحقيقة كان الاستاذ كاهن ينتمى الى مدرسة اشتهرت بفرنسا ثم فى جميع العالم، بمدرسة الحوليات التى ابدعها الاستاذان Lucien Febvre و Marc Bloch فى الثلاثينات وللمدرسة مجلة مشهورة جدا لم تزل تصدر وتوسع آفاق البحث التاريخى الى هذا اليوم : وهى مجلة « الحوليات ، اقتصادات ، مجتمعات ومدنيات » • ومع ان تأثير هذه المدرسة ادى الى تحويل التاريخ الراوى الى تاريخ شامل تحليلى مثير للمشاكل أكثر مما يستهدف « العبر » والتأويل الايديولوجى للماضى ، فان مؤرخى المجتمعات الاسلامية لم يلتزموا الا قليلا هذا المذهب المحرر من ميثولوجيات التاريخ الراوى •

اما المثل الثانى ، فهو ان المؤتمر الاول لسوسيولوجية الاسلام انما انعقد ببروكسيل سنة 1961 • لا يعنى هذا ان الاوروبيين لم يطبقوا المنهاج السوسيولوجى على المجتمعات الاسلامية قبل سنة 1961 فان دراسات L. Massignon و R. Montagne مثلا اعتمدت على المنهاج السوسيولوجى الى حد ما ؛ ولكن مؤتمر بروكسيل أبرز الثلم والتقصير فى تفهم المجتمعات التى لم تحلل بعد كمنظومات متماسكة الاجزاء مترابطة العناصر متعددة المناحى ، خاضعة لقانون التحول أى الانحلال والتركب حتى فى العصور الموصوفة بالجمود • وهنا مع الاسف عراقل تمنع من تعميم هذه الدراسات وتطويرها فى المجتمعات الاسلامية المعاصرة ، وهى عراقل ملازمة لمرحلة البناء القومى التى ترتجلها تلك المجتمعات منذ الخمسينات • كثيرا ما يعبر طلبتى عن رغبتهم فى معالجة موضوع سوسيولوجى أو اينتولوجى ، فيعدلون عن مشروعهم عندما يجابهون صعوبات القيام بالبحث فى الارياف والاتصال بالعوام • وهذا النوع من الاطلاع على الحقائق الاصيلة فى المجتمعات ضرورى اذا أردنا ان نتجاوز مستوى الوصف السطحى والاعتناء بالجزئيات فى بحوثنا •

وهناك اتجاه ثالث فى العلوم الانسانية سأعرض له بالتفصيل غدا فى حديثى عن الاسلام والعلوم الانسانية ، ألا وهو الاتجاه اللسنى • وانما بدأنا نلتمس بوادر هذا التيار العلمى القوى منذ بضعة سنين فى الدراسات العربية • ولا شك ان تطبيق

(2) Claude Cahen : *L'Histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval,* in Studia Islamica 1955/III.

القراءة اللسنية لجميع النصوص العربية سيستتبع تجديدا جذريا فى الحياة الفكرية الاسلامية المعاصرة ٠ ومن الملاحظ البين ان الفكر الغربى مدين للاتجاهات الجديدة المذكورة بالانتقال من المرحلة الاستخدامية الايديولوجية للعلوم الانسانية الى مرحلة التعاضد فى البحث عن الوضع البشرى ٠ نعم ان هذا الانتقال لم يزل متفاوت التعمق والانفصال عن المواقف التقليدية ، الا انه لا يزال يتحقق عند عدد متزايد من الباحثين بحيث ان انتقاد المسلمين لمن اتصفوا « بالمستشرقين » منذ القرن 19 ، يدل على عدم اطلاع المنتقدين على التطورات والتغيرات الحديثة فى العلوم الانسانية أكثر مما ينبه على أخطاء محققة ٠

وقد يسأل سائل ويقول ما هى أسباب هذا الانقلاب الذى حدث عند علماء الغرب بصفة عامة ، بحيث انهم لم يعودوا يرضون باسم الاستشراق وأقروا بتغيير تسمية « المؤتمر الدولى للمستشرقين » الى « المؤتمر الدولى للعلوم الانسانية بآسيا وافريقيا » (1) ؟ ثم هل يصح القول بان اهتمام الغرب بالدراسات الاسلامية ليس وراءه غرض سياسى أو دينى كما كان الامر فى الماضى ؟

نعم ، هذا سؤال لم يزل وجيها فى بلد عربى اسلامى ٠ ولا شك ان الدافع السياسى أقوى من الدافع الثقافى للاعتناء المتزايد بالتعرف على العالم الاسلامى ٠ ولا شك أيضا ان البحث العلمى تستغله الطبقة الحاكمة بالرغم من العلماء المجتهدين بنية عرفانية محضة ٠ وعلى من يريد التثبت من وجود هذه النية العرفانية أن يراجع الكتب الآتية وهى من احدث المنشورات بأوروبا :

- Actes du Congrès de l'Union Européenne des Arabisants : 7 volumes parus (Madrid, Cordoue, Ravello, Coimbra, Bruxelles, Stockholm, Göttingen) ;
- Orientalia Hispanica (Mélanges F.M. Pareja), I, Arabica - Islamica, ed. Brill 1974 .
- Mélanges d'islamologie A. Abel, I, Brill 1974 ; II, Bruxelles 1975
- Islamic philosophy and the classical tradition (Mélanges R. Walzer), ed. Cassirer, Londres 1972.
- Essays on islamic civilization presented to Niyazi Berkes, Brill 1976.

---

(1) انما أقر هذا التغيير فى مؤتمر باريس الذى انعقد عام 1973 ، وهذا يدل على ان العقليات تتطور ببطء ٠ وانتهز الفرصة لاقول انى لا أوافق الذين أدمجوا افريقيا الشمالية فى آسيا من حيث البحث العلمى !

— Mélanges Henri Laoust (à paraître à Damas).
— Mélanges L. Gardet et G. Anawati (à paraître à Louvain).
— 850e anniversaire de la naissance d'Averroès (Paris, sept. 1976 ; à paraître).
— Actes du IIe Congrès d'études des cultures méditerranéennes, ed. S.N.E.D. 1976.
— Archives arabes, ed. C.N.R.S. Paris 1976.
— Annuaire de l'Afrique du Nord, ed. C.N.R.S. dernier volume paru 1974.
— Collection du C.R.E.S.M. (Centre de recherche et d'études des sociétés méditerranéennes, Aix-en-Provence ; plusieurs volumes parus, C.N.R.S. Paris).
— Publications de l'Institut Français d'Etudes Arabes de Damas (nombreux volumes parus).
— Collection Etudes Musulmanes chez J. Vrin, (17 volumes parus).
— Revues : Arabica (C.N.R.S., Brill) ; Studia Islamica (Maisonneuve - Larose) ; Revue des Etudes Islamiques (P. Geuthner) ; Etudes Chamito - Semitiques (g.l.e.c.s.) ; (P. Geuthner) ; Journal Asiatique (P. Geuthner) ; Le Muséon (Louvain) ; Sémitica (J. Maisonneuve) ; Studia Iranica (Brill) ; Syria (P. Geuthner) ; Turcica (Klincksieck) ; Der Islam, Z.D.M.G. (Allemagne) ; Bulletin of School of Oriental Studies (Londres) ; Journal of Arabic Literature (Brill) ; Correspondance d'Orient (Bruxelles) ; Andalus (Madrid) ; Oriente Moderno (Italie) ; Revista degli Studi Orientali (Italie) ; Journal of Economic and Social History of the Orient (France - Amérique ; ed. Brill) etc...

انما ذكرنا القليل جدا من كثير ؛ وكان مقصدى الأسنى فى حديثى كله ان اساهم فى خلق جو جديد يسوده التفاهم والتعاضد بين العلماء المسلمين وعلماء الغرب الذين يبذلون جهودا عجيبة لاحياء التراث الاسلامى ولبعث المدنية الاسلامية فى طرق متأصلة وجديدة معا • ولا يخفى ان المجتمعات الاسلامية والمجتمع الجزائرى بصفة خاصة ، قد اندفعت فى مرحلة التصنيع ؛ والتصنيع عملية مركبة مثيرة لاضطرابات هائلة فى جميع مستويات الحياة الانسانية • وكما ان المجتمعات الغربية المصنعة لجأت الى العلوم الانسانية لتستنبط حلولا ملائمة لمقتضيات أصالتها وأحوالها الجديدة، فكذلك المجتمعات الاسلامية ، ما دامت تتوق الى مدنية التصنيع ، لابد ان تشارك فى البحوث عن الانسان على المستوى الانتروبولوجى مع الانطلاق من المستوى الاسلامى • وسأحاول غدا ، ان شاء الله ، ان اعالج هذه المشكلة العويصة فى حديثى الثانى ،

أشكركم على حسن انتباهكم ، والسلام عليكم جميعا •

ملحق

ما اتسع لى الوقت للايتاء بتوضيحات عن الدراسات العربية والاسلامية بفرنسا فان فرنسا هو البلد الاوروبى الوحيد الذى يسمح لتلاميذ المدارس الثانوية ان يختاروا العربية كلغة أولى أو ثانية . الا ان تدريس العربية لا يضمن الا فى بعض المدارس فى المدن الجامعية كباريس وستراسبورغ وليون ومرسيليا وتولوز وبوردو ، وليل .

اما الجامعات التى يوجد فيها معهد أو قسم مخصص للدراسات العربية والاسلامية فهى الآتية :

— Paris I, III, IV, VIII.
— Collège de France (2 chaires).
— Institut National des Langues Orientales Vivantes.
— Ecole pratique des Hautes Etudes (Section IV, V, VI).
— Fondation Nationale des Sciences Politiques.
— **Lyon II et Lyon III.**
— Maison de l'Orient à Lyon.
— Aix - Marseille II (Université de Provence).
— Toulouse - Le Mirail.
— Bordeaux II.
— Strasbourg II (Université des Sciences Humaines).

وتوجد بفرنسا ــ جمعية لتشجيع الدراسات الاسلامية ؛
ــ جمعية لتشجيع الدراسات التركية ؛
ــ جمعية اساتذة العربية .

وقد اتفقت هذه الجمعية الاخيرة على برنامج من البحوث التى أهملت الى الآن أو أصبحت ضرورية كاللالسنية المطبقة لتعليم اللغة للمبتدئين وتأليف معجم تاريخى للغة العربية ، ومعجم للغة الحديثة ومعاجم اصطلاحية (الفلسفة ، العلوم ، التقنيات ...) ؛ توجيه الطلبة المترشحين لدكتورة الدولة نحو موضوعات متفتحة على الجوانب المهملة من ماضى الاسلام والجوانب العملية الحية من حاضر المسلمين .

(راجع مجلة الجمعية الفرنسية لاساتذة العربية ، عدد 6 ، 40, avenue d'Iéna, 75116 Paris)

حول الاسبوع الاول للدراسات الايطالية ـ العربية

د.م. بالحميسى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر



انعقد أخيرا بايطاليا تحت اشراف أربعة معاهد تابعة لجامعات روما والبندقية ونابلى وبالرمو متخصصة فى دراسة الثقافة والحضارة العربية أسبوع دراسى عربى ايطالى من 14 الى 21 نوفمبر الماضى فى شكل لقاءين كان الاول بمدينة البندقية الشهيرة حول الدراسات الايطالية منذ ما يزيد على نصف قرن لتعريف جوانب من الثقافة العربية فى ايطاليا ، وكان اللقاء الثانى بمدينة بالرمو عاصمة صقلية لاستعراض التراث العربى الاسلامى المتعلق بالجزيرة .

وشارك فى هذا الاسبوع الاول عدد من الشخصيات العربية الجامعية قدموا من مختلف البلاد العربية مغربها ومشرقها ومن بينهم أدباء وشعراء ومؤرخون وفلاسفة وأثريون أو مسؤولون عن أجهزة ثقافية تلبية لدعوة شخصية تلقوها من زملائهم الايطاليين أو من المعاهد المنظمة لهذا الملتقى .

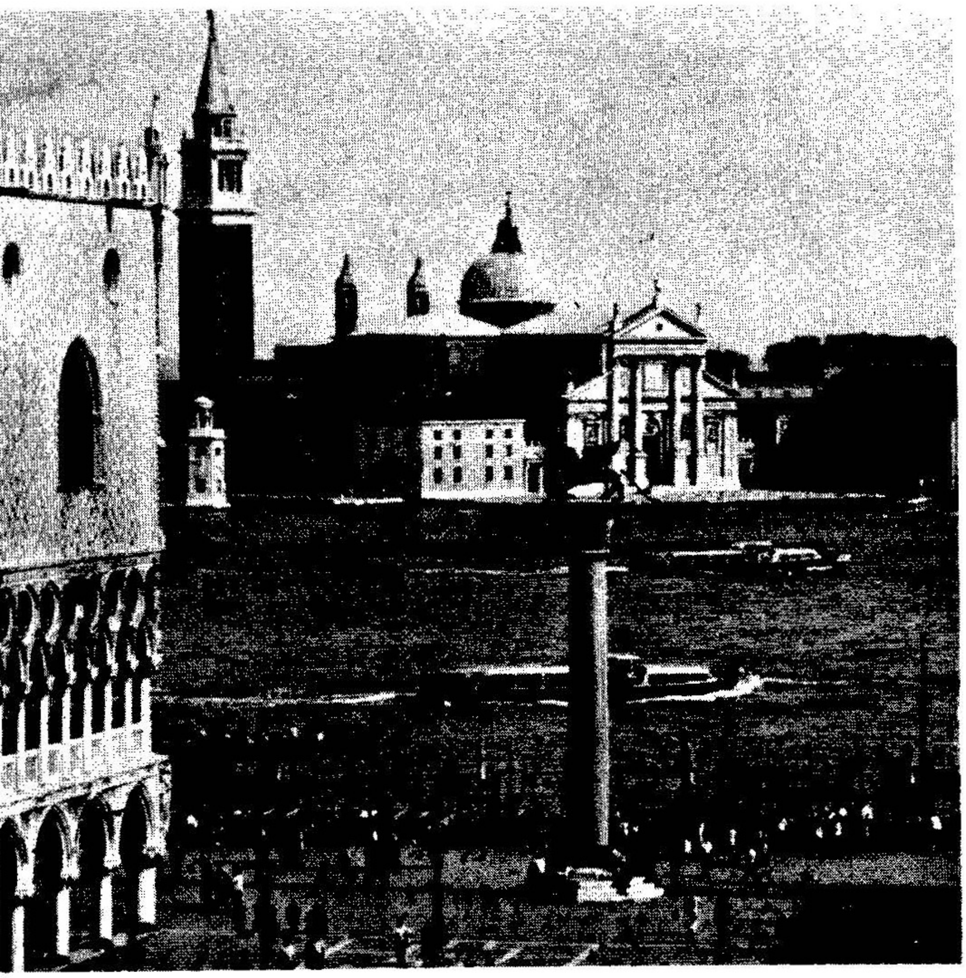
لقاء البندقية (15 ـ 18 نوفمبر) :

ألقى فى البداية كل من مدير الجامعة ومسؤول فى وزارة الشؤون الخارجية كلمات تحية وترحاب وقد جاء فيها على الخصوص ذكر العلاقات القديمة السلمية بين البندقية والبلدان العربية فى ميدان التجارة واعجاب الشاعر الاديب الايطالى بترارك (Pétrarque) (1304 ـ 1374) بالعرب وبحضارتهم وبدورهم فى تطوير الطب حتى اتهم طبيب عربى فى الماضى بالسحر وكان يمارس مهنته بايطاليا فتحول الى راهب تحت اسم قسطنطين الافريقى Constantin l'Africain لينجو من الخطر ... وأبرز الخطيبان ما جاء فى بعض الكتب العربية القديمة من أوصاف لمدن أو جزر ايطالية من رحلة ابن جبير أو ديوان ابن حمديس الصقلى . ثم ألح الرسميون على ضرورة التبادل الثقافى والفكرى فى وقتنا الحاضر مصرحين ان المحاولات من أجل نشر اللغة العربية فى ايطاليا ونشر اللغة الايطالية فى العالم العربى لم تصل بعد الى الدرجة المنشودة الا ان الجهود متواصلة وستكون النتائج أكثر ايجابية اذا تعاون الطرفان وتكررت مثل هذه اللقاءات وتمخض عنها عزم وحرص على العمل المشترك . ونوه مفتتحو الاسبوع باسبقية ايطاليا فى الدراسات العربية بضرب مثالين : أول مطبعة عربية ظهرت فى أوروبا كانت بروما وأول كتاب عربى طبع فى الغرب هو كتاب الشريف الادريسى سنة 1572 .

وكانت المحاضرات العلمية التى قام بها نخبة من عمداء الاستشراق الايطالى وجماعة من المتخصصين فى مواضيع عديدة مختلفة متنوعة : علم النمات العربية فى ايطاليا ـ الفن الاسلامى فى ايطاليا ـ المقابر الاسلامية فى جزيرة دهلك كبير بالبحر الاحمر ـ اللغة العربية الجنوبية ودراساتها فى ايطاليا ـ الدور الاسلامى فى تقدم العلوم والمصادر فى ايطاليا ـ دراسات الادب العربى فى ايطاليا ـ مذهب ابن رشد فى جامعة بادوا (Padova) فى القرن الخامس عشر ـ الكتاب المعروف بسر الاسرار لارسطوطاليس كمثال على الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب ـ التعاون مع البلاد العربية فى مجال علم الآثار ـ مشروع الانوماستيكون آرابيكم (Onomasticon Arabicum) اداة للابحاث التاريخية ـ احصاء الآثار الاسلامية ببغداد ... وكانت كل هذه المحاضرات دقيقة البحث حديثة المنهجية غير أننا نقف بقراء الأصالة عند محاضرتين

رأينا فيهما أهمية أكثر : نشر كتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسى ـ ومشروع بحث عن قاموس أساسى للغة العربية ٠

فطبع الادريسى طبعة علمية وافية يرجع مشروعه الى سنة 1954 وبدأ العمل بتعيين لجنة من المتخصصين ومن المراسلين وحددت أعمال كل عضو ثم شرع فى تصوير جميع المخطوطات (مخطوطات نزهة المشتاق) الموجودة فى العالم فى باريس واسطنبول والقاهرة ولينينقراد واوكسفورد ولندن وصوفيا ٠ وكان العمل الاول هو مقارنة هذه المخطوطات كلها للاطلاع على ما أتلف وما اختلف فيها مع الاعتماد على اقدمها وهو مخطوط باريس رقم 2221 ، لمعرفة زوائد هذا ونقائص ذاك ٠ ثم توجه كل عضو فى اللجنة الى البحث عن أخبار الادريسى فى الكتب يستعين بها الجميع فى المرحلة الثانية من العمل الجبار وبعد ذلك أقصيت مخطوطات ظهر علميا انها منقولة عن غيرها فيستغنى عنها اذن ٠ وأثناء التحقيق ظهر كثير من المشاكل : تحريف بعض الاسماء للاماكن والاشخاص ، صعوبة تحديد أماكن أو خطأ فى ذكر بعض التواريخ فلجأ أعضاء اللجنة الى المصادر التى استعملها الادريسى نفسه أو الى تلك التى اغترفت من نزهة المشتاق كما استخدموا كتب الجغرافيين الذين سبقوا الادريسى أو جاءوا بعده (المقديسى ـ ابن حوقل ـ ابن خراذنبه ٠٠٠) وبعد مرحلة التمحيص جاءت مرحلة التحرير والتعاليق والنشر النهائى حسب الاقاليم السبعة وقد ظهرت سبعة مجلدات ٠٠٠ وطرح على المتخصصين مشكل ترقيم الصفحات بما ان النص عربى والتقاييد والملاحظات وكذلك المقدمة باللغة الايطالية فاتفق على ترقيم غربى على ان يكون ترقيم الصفحات للنشرة الخاصة للعالم العربى ترقيما يجارى النص ٠ وخصص جزء كامل للخرائط وعددها سبعون ! وللفهارس ٠ وبدأ تسويق الطبعة منذ 1970 وكلما تم مجلد نشر والعمل على وشك الانتهاء ٠ وما لاحظناه من نماذج وما سمعناه من شروح حول « كتاب روجر » يدل أوضح الدلالة على ثمرة الجهود الجماعية والعمل المتواصل حسب طرق علمية والمنهجية المتبعة التى لا تترك للخطا مجالا ٠ وكم لنا فى هذا المثال من عبر اذا أردنا ان نخرج مخطوطاتنا من خزائنها لنحولها الى نفائس وذخائر ٠



منظـــران



من منـاظر البنـدقية

والمثال الثانى عن هذه المجموعة من المحاضرات هو مشروع القاموس العربى الاساسى انطلاقا من الاعتبارات التالية :

ان أول عقبة تواجه تعليم لغة ما هى عقبة المفردات الاساسية فى البداية • وقد حاول الانقلو ـ ساكسون منذ ثلاثين عاما (وقد خصصوا لمشروعهم اعتمادات باهضة !) اصطياد نحو 600 الى 700 كلمة مستعملة بكثرة فى اللغة الانكليزية رائجة فى الصحف والمجلات والاذاعة والشارع والحياة العائلية والعملية ليجعلوا منها اللغة الاساسية حتى يسهل استعمال الانكليزية وينتشر •

وتساءل الايطاليون فيما اذا كانت هذه الطريقة صالحة لاختيار مفردات اساسية فى العربية من أجل تبسيطها ولاحظوا نقائصها ومثال ذلك انه فى سنة 1939 قام أستاذ باحصاء الكلمات الاكثر انتشارا فى القدس ففوجىء بكلمة « هتلر » وتعجب فى نفس الوقت من عدم ورود ذكر أيام الاسبوع فى الصحافة •

فاختار الايطاليون لقاموسهم طريقة أخرى : الاغتراف من اللغة الفصحى الا ان هذه تتطور بسرعة وتنمو مفرادتها فكيف يكون الاختيار وعلى أى أساس ؟ وماذا نقدم ـ عن طريق القاموس ـ لمن يريد تعلم العربية لا سيما من الاوروبيين ؟ فاتفق الرأى على جمع 800 كلمة مستعملة فى كافة العالم العربى أو فى معظم اجزائه حتى يكون من يعرفها مطمئنا متيقنا من ان له بضاعة لغوية مستعملة فى المغرب وفى المشرق بمدلول واحد •

وهذا من المشجعات •••

والآن كيف ترتب ألفاظ هذا القاموس ؟ فالطريقة الكلاسيكية غير مجدية فجمعت المفردات حسب محاور يتجه اليها الباحث مثل الجسد ـ المنزل ـ العمل ـ الشارع الادارة ـ الحكومة ـ المجتمع ••• الخ • وهكذا يسهل على الطالب الاجنبى تعلم اللغة العربية العملية • والايطاليون متيقنون انهم يساهمون بهذا العمل وما شابهه فى نشر اللغة العربية فى أوروبا •

واذا نظرنا الى طرق بحثهم ومنهج اختيارهم وهدف عملهم شعرنا بضرورة

الاستفادة من تجاربهم فى حملتنا الوطنية من آجل تعريب يضمن وحدة لسانية وقاعدة ثقافيـــة ٠

لقـــاء بالـــرمو (19 ــ 21 نوفمبر) :

واصل الملتقى أعماله فى عاصمة صقلية وكانت جلســة الافتتاح خاصة لخطــب الرسميين من نواب وموظفين سامين فى الحكومة الجهوية وقد ركز كلهم على ماض صقلية المجيد وعلى دور العرب الحضرى بالجزيرة وعلى كون صقلية كانت ولا تزال همزة وصل بين العرب وايطاليا وأبرز أكثر من واحد انجازات العرب وتقدم الفلاحة والعدالــة الاجتماعية أيام حكمهم ــ وكانت المحاضرات ، رغم كثرتها وتنوع مواضيعها ، ترمى الى الاشادة بصقلية العربية وبتراثها ٠ وكانت أهم الكلمات حول التآليف والدراســات العربية والغربية التى حظيت بها صقلية مثل مؤلفات امارى Amari ، ونالينو Nallino ، وقبريالى Gabrielli ، ورزيتانو Rizzitano ، وتوفيق المدنى ، وحسن حسنى عبد الوهاب ، واحسان عباس ، وحول ما ترجم الى الايطالية من كتب عربية مثل رحلة ابن جبير أو فصول من الادريسى حول صقلية والجزر الايطالية أو احصاء الكلمات العربية الموجودة الى يومنا هذا فى اللغة الايطالية الداخلة عن طرق الحروب الصليبية والمبادلات التجارية واقامة العرب مدة ببعض الموانى مثل جنوة والبندقية ومن بـين هذه الالفاظ :: مرزيانى (Marzappani) من « مرزبان » وهو وعاء الحلوى وبراكينـو Baraquino من « البراق » وفاقوزبان Fagozanban من الزبانية ، وزربينو Zerbino من الزربية وبقـارينو Bagarino من البقارين ، وكسيسى Caseci من قسيس وفادالا Vadala من عبد الله ، وباراقادا Baragada من بارك الله ، وبيتــال Pihala من هبة الله ، وبيرنينو Berenino من ابن الامير ــ وهناك اسماء اماكن بصقلية ذات أصل عربى مثل كاسيرو Casero من القصر ، وكاتالرازى Catalrazi من قلعة الخزاز ، ومارسا Marsa من المرسى ، وميسارمينى Donalukata من منزل الامير ، ودونالوكاتا Donalukta من عين الاوقات ٠٠٠ الخ ٠

كما القيت محاضرات عن نتائج الحفريات بالجزيرة لرفع الغبار عن بعض الجوانب من تاريخ المسلمين هناك ٠ وللصقليين اليوم عناية خاصة بابن حمديس الشاعر ٠



بالرمو : قصر من القصور القديمة ذات الهندسة العربية



بالرمو : المدينة الحديثة

فالدراسات التى تناولت حياته وشعره ونقل قصائده الى الايطالية شغلت عددا من المستعربين ..

وقد صادق الحاضرون على اقتراح تقدمت به فى شأن مسلمى صقلية بعد نكبتهم وخروجهم من وطنهم وتشتتهم فى المغرب والمشرق . فمصيرهم لا يختلف عن مصير مسلمى الاندلس بعد سقوط غرناطة .

ـ وسيخصص أسبوع ـ ان شاء الله ـ لهذا الموضوع يبين فيه الباحثون نزول الصقليين بمختلف أقطار العالم العربى ومدى تأثيرهم فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ...

على هامش الاسبوع الايطالى العربى :

ان النشاط الثقافى المكثف هنالك يدعو الزائر الجزائرى ولو كانت الاقامة قصيرة الى الوقوف عند بعض الجوانب منه :

1 ـ **الجزائر فى البحث الجامعى الايطالى** . فانه من دواعى السرور ان نرى اهتماما متزايدا ببلدنا قديما وحديثا . ولو لا ضيق الوقت لكان احصاء عناوين الرسائل والاطروحات والمقالات طويلا جدا ، وأقدم فى هذا المقال نموذجا :

ـ أنابوزو (Anna Bozzo) من نابلى : أطروحة حول العلاقات بين الاسلام والحركة الوطنية اتجاه الاستعمار 1903 ـ 1938 نوقشت سنة 1971 .

فرانسيسكو كاسترو (Franscesco Castro) مقال حول تاريخ وتطور التسيير الذاتى بالجزائر (مجلة ستودى مقربينى Studi Maghrebini ج 1 ص 61 ـ 65) نابلى 1966 .

ـ سالفتور بونو (Salvatore Bono) ، مقال فى الشهادات الشفاهية وتاريخ الجزائر المعاصر (Testimonianze Orali per la Storia contemporanéa Dell'Algéria) مجلة افريكا AFRICA مارس 1975 .

وتقوم حاليا طالبة بجامعة بادوا (Padova) ببحث جامعى حول كاتب ياسين .

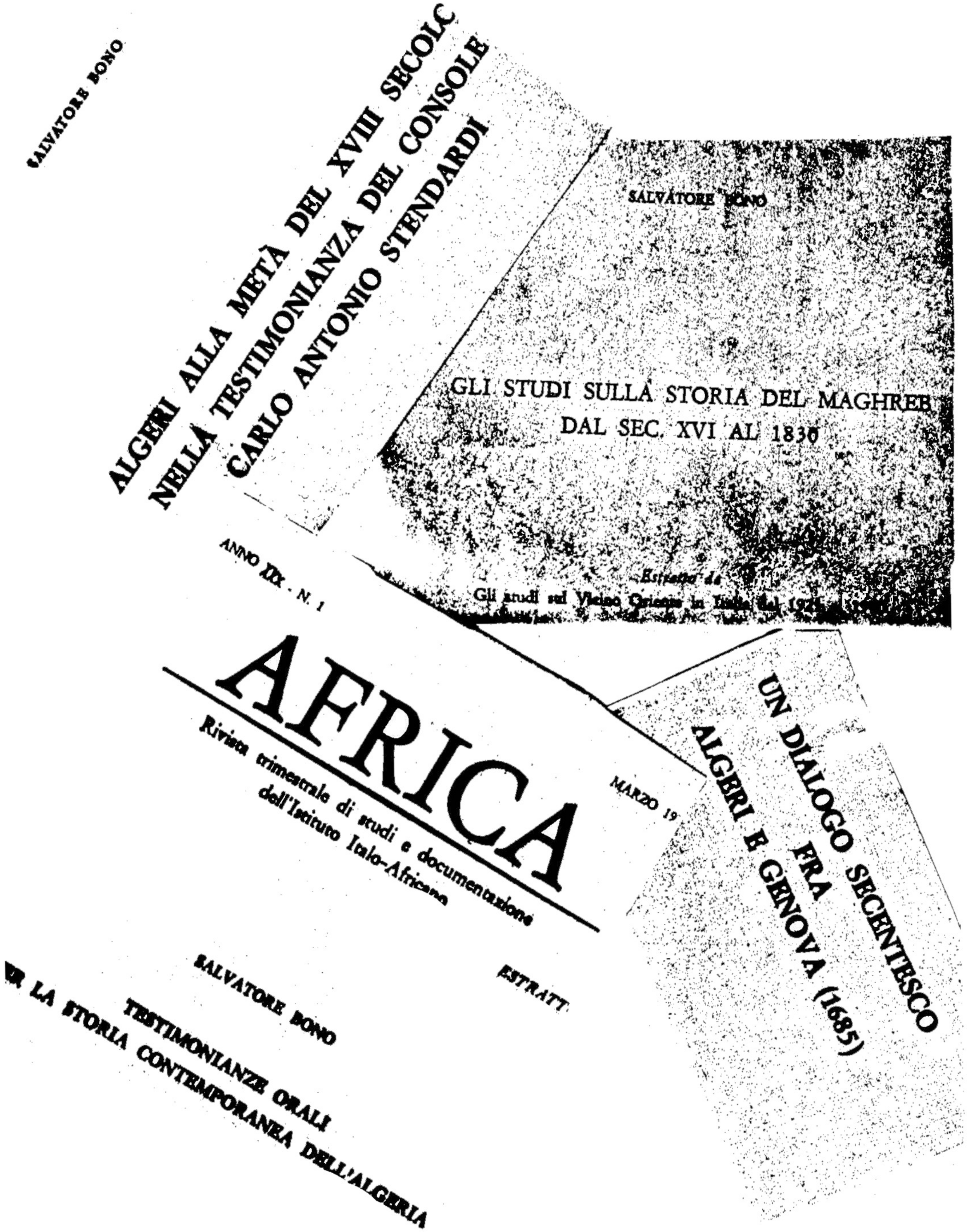
ويعنى بعض المؤرخين الايطاليين بالفترة العثمانية فى الجزائر ومقالات الاستاذ بونو عديدة تناولت الغزو البحرى ، وأحوال الجزائر فى منتصف القرن الثامن عشر والعلاقات بين جنوه والجزائر والاسرى الجنويز المسيحيين بالايالة وحالة الاسرى المسلمين بليفورن ...

وقد ظهرت هذه البحوث فى مجلات جامعية ذات المستوى الرفيع .

2 ـ **الوثائق الايطالية ومساهمتها فى اعادة كتابة تاريخنا** . بايطاليا كنوز لا تقدر قيمتها من الوثائق التاريخية التى تهم المغرب العربى بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة . وكان البلد قبل 1860 عبارة عن مجموعة من الدويلات والجمهوريات اشتهرت بنشاط بحرى وتجارى ملحوظ ولكل دويلة خزائنها حيث يوجد الآلاف من الوثائق ، ومن أغنى الخزائن أرشيف البندقية الذى يحفظ تقارير القناصل والمبعوثين الى شمال افريقية ـ وقد عرض بمناسبة لقاء البندقية عدد من هذه الوثائق نأمل ان تصور وترسل لتنشر فى وقت قريب . والجدير بالذكر ان بعض الطلبة البنادقة ـ فى اطار الاعمال التطبيقية ـ يبحثون فى الخزائن الخاصة عن هذه الوثائق لجمعها وتبوبيها وترقيمها ونتمنى أن نجد فى المستقبل تسهيلات للاستفادة من هذا العمل الايجابى .

3 ـ **تدريس اللغة العربية بايطاليا :**

تقوم حاليا معاهد كبرى لتعليم اللغة العربية وهى معاهد روما ونابلى وبالرمو والبندقية وبادوا وشاهدنا اقبالا كبيرا وعددا من الراغبين فى تزايد . وتعتمد طريقة التعليم على الوسائل السمعية البصرية لتذليل العقبات الاولى ثم يشرع فى تعليم النحو والصرف وشرح النصوص ومطالعة الجرائد ونقل أهم النصوص الى الايطالية . وقد ارتفع عدد الطلاب المستعربين من 2 الى 60 فى ظرف سنتين فى البندقية وحدها واما عن البرامج والمستوى والمنهجية فحدث ولا حرج والعبرة بالنتيجة اذ رحب الطلاب بالضيوف بلغة الضاد وفضلوا الحديث معنا بلغتنا معربين عن بعض النقائص مثل قلة المراكز الثقافية العربية بايطاليا (يوجد الآن مركز واحد بنابلى ينافسه مركز اسرائيلى) وقلة الافلام العربية والتمثيل المسرحى وتبادل الزيارات بين الطلبة وجمود بعض الملحقين الثقافيين بروما .


SALVATORE BONO
ALGERI ALLA METÀ DEL XVIII SECOLO
NELLA TESTIMONIANZA DEL CONSOLE
CARLO ANTONIO STENDARDI
SALVATORE BONO
GLI STUDI SULLA STORIA DEL MAGHREB
DAL SEC. XVI AL 1830
Estratto da
Gli studi sul Vicino Oriente in Italia dal
ANNO XX - N. 1
AFRICA
Rivista trimestrale di studi e documentazione
dell'Istituto Italo-Africano
MARZO 19
ESTRATT
SALVATORE BONO
TESTIMONIANZE ORALI
LA STORIA CONTEMPORANEA DELL'ALGERIA
UN DIALOGO SECENTESCO
FRA
ALGERI E GENOVA (1685)

وقد بحثت عبثا (فى مكتبة معهـد الدراسات الشرقية ببالرمو ـ وهـى مـزودة بالانتاج العربى) عن كتاب جزائرى أو مجلة أو جريدة وكان جواب المدير ان المسؤولية ليست على عاتق الايطاليين ...

فهل نتدارك ما فات ونعطى صورة حية عن انتاجنا وبحثنا حتى نساهم بدورنا فى ازدهار الدراسات العربية هنالك ونشجع المزيد من الطلبة ولا ننسى ان أمتن الروابط هى الروابط الثقافية .

جائزة « ميديتيرانى » (جائزة البحر الابيض المتوسط) .

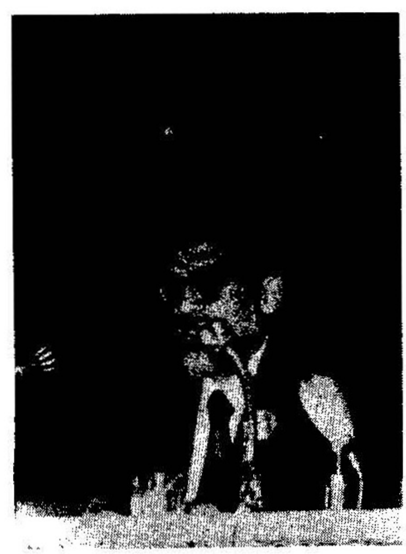
صادفت اقامتنا بصقلية تسليم هذه الجائزة للمرة الاولى وقدرها مليون ليرا ايطاليا.

وكان عدد الفائزين أربعة ايطاليين وفرنسى والشاعر العربى نزار قبانى تقديرا لانتاجهم الادبى ومواقفهم فى شتى الميادين .

ثم منحت جائزة خاصة لادباء عرب ثلاثة وهم : الاستاذ عيسى الناعورى الامين العام لمجمع اللغة العربية بالاردن والاستاذ خليفة محمد التليسى من ليبيا والاستاذ عـزيز أحمد مدرس الآداب بالكانادا على ما قدموه من أعمال وبذلوه من نشاط فى التعـريف بالادب الايطالى وقد نقلوا الى العربية مسرحيات وقصصا وقصائد ودراسات ايطـالية كما نقل بعضهم نصيبا من أدبنا الى الايطالية . وما من شك ان مثـل هذه المبادرات المشجعة ستحرك القرائح وتفتح مجالات وآفاقا جديدة .

الجـــانب الاقتصـــادى
فى الاســـلام

د. محمد نجاة الله صديقى
أستاذ الاقتصاد
بجامعة عليكره المسلمة (الهنـد)



يهدف هذا المقال الى تقديم فكرة واضحة عن الجانب الاقتصادى فى الاسلام ، بوضع تعريف دقيق للاقتصاد ، وشرح المقصود منه فى الاسلام ... كما يهدف الى اعطاء فكرة واضحة عما كتب فى هذا الموضوع ... ويهـدف هذا المقال أخيرا الى ارشاد الطلبـــة المهتمـين بالجانب الاقتصادى فى الاســلام ، وحثهم على القيام بمـزيد مـن البحوث العلمية فى بعض الميادين المتصلة بهذا الموضوع .

ان الاسلام له نظرة خاصة الى الوجود ، وهذه النظرة مستمدة الى حد بعيد من نظرة الانسان الى الشؤون الاقتصادية . وبذلك يقدم الاسـلام نظاما من المعايير التى تسـير بمقتضاها الحياة الاقتصادية . وأول عمل ينبغى أن يتصدى له الباحث فى هذا الجانب

الاقتصادى من الدراسات الاسلامية ، هـو أن يفهم هذا النظـام المعيارى ، وأن يحلله بالاعتماد على الامثلة المستمدة من الواقع • ومثل هذه الدراسة يمكن أن تدعى **الفلسفة الاقتصادية للاسلام** •

واذا نظرنا الى التاريخ ، فاننا نجد أن الاسلام قد سطر حيـاة الانسان الاقتصادية بطريقة خاصة هى موضوع : **التاريخ الاقتصادى للاســلام** • وهذا العلـم يدرس كيف استطاع الاسلام ، بنظرته الخاصة الى الوجود ، وما يشتمل عليه من قيـم ومعايير ، أن يؤثر على نشاط الانسان فى المجال الاقتصادى ••• وكتكملة لاغنى عنها ، فان **تاريـخ الفكر الاقتصادى فى الاسلام** يمكن أن يلقى مزيدا من الاضواء على جانب غير مطروق من الفكر الاسلامى •

ان الجانب الاقتصادى فى الاسلام ينكشف لنا بأبعاده الجديدة فى نطاق المحاولات التى تبذلها الشعوب الاسلامية لتنظيم شؤون حياتها طبقا لتعاليم الاسلام ومثله العليا • وهذا الامر يستلزم دراسة السلوك الاقتصادى المعاصر ، كما يستلزم دراسة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ، والموازنة بينها ، والمقارنة بينها وبين الحلول الاسلامية الممكن اقتراحها كبديل لها ، مع السعى لتحديد التغييرات الواجب ادخالها للانتقال الى أنماط من السلوك ، وأنواع من المؤسسات المطابقة للمعايير الاسلامية • ومثل هذه الدراسة يمكن أن تدعى **علم الاقتصاد الاسلامى** •

الفلسفــة الاقتصادية للاســلام

1 ــ ان فكرة « الله » القادر على كل شىء ، الله الذى خلق الانسان وأمده بأسباب الحياة ، ورزقه من الطيبات ، وأرشده الى الصراط المستقيم عن طريق الانبياء والمرسلين هذه الفكرة هى التى يهتدى بها الانسان فى حياتــه الاقتصادية وفى علاقته بالطبيعة • فما على الانسان الا أن يستثمر الخيرات التى سخرها الله له ، وأن يستفيد منها ، لكى يبلغ غاية الغايات ، ماديا ومعنويا •

وهكذا نجد المسلم يتوجه الى الله بكل خشوع وخضوع ليشكر نعمته الكبرى عليه • وهذه هى النقطة الاساسية فى علاقة الانسان بخالقه : فالانسان ينبغى أن يبذل قصارى

جهده ، لينال رضى الله • وهذا الرضى يناله اذا هو توكل على ارادة الله ، تلك الارادة التى بفضلها يكتسب الانسان الصفات الحميدة والقيم الرفيعة • فالقيم التى يسعى الانسان لبلوغها متمثلة فى الامتثال للاوامر • وبما أن المسلم يعتقد أن الحياة لا تنتهى عند حد الممات ، بل تستمر فى الآخرة ، فان هذا الاعتقاد يجعل الانسان يتمسك بهذه القيم فى الحياة الدنيا ، ليفوز بالنعيم فى الآخرة •

2 ـ ان القيم التى أرادها الله لعباده ، متفاوتة فيما بينها من حيث الرتبة • فهناك قيم روحية تتصل بالعلاقة بين الانسان وخالقه ••• وقيم أخلاقية تختص بالعلاقة بين الانسان وبنى جنسه ، وبالانسان وذاته ••• وهذان النوعان من القيم مقدمان فى الرتبة على القيم المادية المتصلة بالعلاقة بين الانسان ومتاع الدنيا ، أى الاشياء التى نستخدمها ونتعامل بها فى النشاط الاقتصادى • وهذه القيم الاخيرة انما جعلت لتخدم النوع الاول والثانى من القيم ، وينبغى أن يتخذها الانسان أداة لتحقيق القيم الروحية والاخلاقية السامية •

3 ـ واذا نظرنا الى تطور علم الاقتصاد فى القرنين ونصف القرن الاخيرين ، فاننا نجد أنه كان عبارة عن « أفكار منظمة تتعلق بكيفية تحقيق الرخاء الاقتصادى » • وهذا الرخاء الاقتصادى يعتبر جزءا من الرخاء الشامل الذى يمكن تحقيقه بتوفير السلع والخدمات • ولكن ، مما لا يكاد ينازع فيه أحد أن طرق توفير السلع والخدمات ، وكيفية استهلاكها والاستفادة منها ، لهما صلة وثيقة بالرخاء الشامل الذى يعتبر الرخاء الاقتصادى جزءا منه ، أو بالاحرى ، جانبا من جوانبه • ولذلك فان نظام الاسلام المعيارى يهتم قبل كل شىء :

أ ـ بالعلاقة التى يعقدها الانسان بانسان آخر ، عندما يسعى لتوفير السلع والخدمات لنفسه •

ب ـ بالغايات التى يتوخاها من سعيه للحصول عليها •

فالنقطة الاولى (أ) لها صلة بأنماط السلوك وبقوانين التعامل داخل المؤسسات الاجتماعية • اما النقطة الثانية (ب) ، فلها صلة بالغايات القصوى وبالقيم التى يسعى

الانسان لبلوغها من وراء حصوله على الوسائل المادية ٠

ولذلك فسوف نعمد الى تحديد القيم الرفيعة التى أمرنا الله أن نسعى لتحقيقها من خلال نشاطنا الاقتصادى وتعاملنا مع الناس ٠ وهذه القيم هى : طاعة الله ، والمساواة ، والعدل ، والتعاون ، وكسب الرزق الحلال ٠ أما المساواة والعدل والتعاون ، فهى القيم الاخلاقية الرفيعة ٠ وأما كسب الرزق الحلال ، فهذه هى القيمة المادية التى يحثنا الاسلام على تحقيقها ٠

4 ـ ان الانسان اذ يتوكل على الله ، وعلى الله وحده ، يتحرر فى نفس الوقت من كل قيد آخر ، ومن كل شكل من أشكال الخضوع ٠ وهذا معناه رفض أية قيمة لا تصدر عن مشيئة الله وارادته ٠ فلا يجوز التمسك بالقيم الصادرة عن ارادة الانسان ، كفرد أو كجماعة ، الا اذا اعتبرنا ان ارادة الانسان فى حد ذاتها خاضعة لمشيئة الله وارادته ، ومعبرة عنها ، ومتجهة لمرضاة الله ٠ فكل انسان حر ، ولا يجوز لاى انسان آخر ، ولا لاى مجتمع من المجتمعات ، أن يفرض ارادته على انسان آخر ٠ وقد خلق الله جميع أبناء البشر سواسية كاسنان المشط ٠ ولاشك أن الله ميز الانسان على سائر المخلوقات الاخرى التى هى مسخرة له ، وتلك هى مشيئة الله ، وكذلك فان الاسلام حرر عقل الانسان من جميع الخرافات والاباطيل ، كما حرره من جميع المؤسسات التى قد تطالبه بالانصياغ لها ، أو تريد أن تفرض عليه قيمها ، لان المصدر الوحيد للقيم هو الله ٠ فحرية الانسان مطلقة ، وليس لها من قيد سوى الطاعة والامتثال لاوامر الله التى هى مفصلة ومحددة فى القرآن الكريم المنزل على خاتم الانبياء والمرسلين ٠

على أن حرية الانسان هذه ليست من قبيل الفطرة التى لا تخضع للارادة ٠ فهذه الحرية تتجلى فى سلوكه العام فى الحياة الدنيا ٠ ويجب على الانسان أن يبذل جهد المستطاع ، فى نطاق نشاطه الاقتصادى ، لكى يحافظ على حريته ، وذلك بتأمين ما قد يحتاج اليه من سلع وخدمات ٠ وينبغى للنظام الاقتصادى أن يدعم هذه الحرية لصالح الفرد والجماعة ، فلا يجوز أن يجعل الانسان خاضعا لاخيه الانسان ، بسبب الضرورة والحاجة ، بل يجب أن يحرر من ذل السؤال ، ومن الجوع والحرمان ٠ ولابد من القضاء

على الإضطهاد والاستبداد ، مهما كان نوعهما • ولابد كذلك من تطهير النفس من الجشع والبخل والحسد والبغضاء ، وغير ذلك من الرذائل • ويجب أن يتحرر المرء من الخوف ، باستثناء الخوف من الله ، الذى يعنى فى الحقيقة الخوف من العواقب المترتبة على السيرة السيئة وارتكاب الكبائر •

وبهذا الاعتبار ، فان حرية الانسان فى طاعة الله تعالى هى المثل الاعلى الذى يسعى المرء لتحقيقه فى سيرته ، كما أنها هى الغاية القصوى فى وضع السياسة الاجتماعية ••• والمجتمع الذى يتصوره الاسلام هو المجتمع المتحرر الذى يتمسك كل فـــرد من أفراده بالقيم الرفيعة ، ويتجنب الرذائل التى تحيد به عن الطريق المستقيم •

5 ــ ان الاعتقاد بأن جميع أبناء البشر مخلوقات اللــه الواحد الاحد ، وأن أصلهم واحد ، وأن القوانين الاخلاقية التى يخضعون لها واحـــدة ، ان هذا الاعتقاد يعنى أن الناس أجمعين متساوون كأسنان المشط • وقد أكد الاسلام على المساواة وعلى الاخـوة بين الناس ، بعبارات واضحة لا لبس فيها • فلا يجوز أن يكون للاختلاف فى اللون أو فى اللغـة أو فى الجنس أو فى الوطن ، ما يدعو الى تفضيل قـوم على قـوم آخرين ، اذ لا فضل لانسان على آخر الا بالتقوى وبالسيرة الحسنة • وبما أن هذه السيرة متعلقـة بالارادة ، فهى ليست ثابتة ، لان الشرير قد يصبح من الاخيار ، والكافر قد يرزقه الله بالايمان • وبهذا الاعتبار ، فان الاختلاف فى الدين لا يهم ، ولا يحول دون معاملة الانسان حيثما كان ، على أساس الاخوة • واذا لم تقم العلاقات بين الناس على أساس المساواة ، فان الانسان يفقد الحرية التى يتمتع بها فى طاعة الخالق • وبناء على هذا ، فان المساواة تعد من القيم الرفيعة فى النظام المعيارى للاســلام ، كما أن قواعد السلوك وقوانـــين المجتمع ، ومؤسسات الدولة ، ينبغى أن تكون خير دعامة للمحافظة على هذه المساواة •

على ان الانسان ، فى سعيه لتحقيق المزيد من الرفاهية والرخاء ، كثيرا ما أدى بـه الامر الى اختــراق هذا القانون السماوى • وذلك أن التفاوت بين النــاس فى المهـارة والتدبير ــ فضلا عن المال الموروث ، والجاه والسلطة ــ هذا التفاوت جعل الاقلية تخضع للاكثرية فى مجالات الانتاج والكسب • وهكذا فان الداء ما لبث أن أفضى بصورة حتمية

الى الاختلال فى توزيع الثروات ، والى عدم المساواة ، والى الظلم والاجحاف ٠ ونتيجة لذلك تشوهت القيم وتجردت العلاقات بين البشر من الروح الانسانية ٠ فالاسلام ، وان كان يعترف بحق الانسان المقتدر والمدبر ، لقطف ثمار مهارته ، ويقر بامكان التفاوت فى المداخيل والثروات ، الا أنه فى نفس الوقت يضمن للمواطنين التكافؤ فى الفرص ، وحقهم فى الحصول على مرافق الحياة الكريمة ، فى نطاق الحرية والمساواة بين الناس ٠ فلا يجوز اذن أن نضحى بالحرية والمساواة فى سبيل الرفاهية الاقتصادية ، باعتبار أن الرفاهية ان هى فى الواقع الا وسيلة للتمتع بالحرية والمساواة ٠

6 ــ ان المساواة والحرية يخلق كل منهما لدى الفرد موقفا يتسم بالتقدير لاخيه المواطن ٠ وهذا الموقف يتميز بالعدل وحب الخير ٠ فالله يحكم بالعدل ، ويحب العدل ، ويأمر بالعدل فى علاقاتنا مع الغير ٠ أما الظلم فيؤدى الى عدم المساواة ، ويقضى على الحرية ٠ فمن واجب كل انسان أن لا يهضم حقوق الناس ، وأن لا يطالب الغير الا بما يستحقه ٠ ولكى يقتنع الانسان بأن عمل الخير واجب ، ما عليه الا أن يدرك بأن تضحيته تجعل غيره يقتدى به فى عمل الخير ٠ فالعمل الصالح متكامل مع العدل ٠ وقد يكون من الصعب على المرء أحيانا أن يدرك المغزى من معاملة الناس بالعدل ، الا أنه ليس من الصعب اطلاقا أن يقتنع بفائدة العمل الصالح ٠ وقد أوضح الاسلام حاجة الانسان الى العدل فى مختلف الاوضاع الاجتماعية ، وأكد بالدرجة الاولى على ضرورة النية الصادقة فى انصاف الناس ومعاملتهم بالحسنى ٠ واذا كانت النية الصادقة موجودة فليس من المستبعد أن يغير الانسان سلوكه فى تعامله مع الناس ٠

7 ــ ان العدالة الاجتماعية والاقتصادية لا يمكن توفيرها الا اذا ارتبطت ارتباطا قويا بالعدل وحب الخير فى سلوك الافراد والجماعات ٠ على أن مهمة تحقيق العدل بين أفراد الشعب ، وتوفير نظام من العدالة الاجتماعية ، هذه المهمة ليست متعلقة بالنية أو الارادة وحدها ٠ وذلك أن السلطة المتمثلة فى أولى الامر ، مكلفة عند الاقتضاء بهذه المهمة ، كما أنها مكلفة بالدفاع عن الحرية والمساواة ٠

8 ــ ان الاشتراك فى الاهداف والمصالح العليا هو مصدر التعاون بين أفراد المجتمع البشرى ، فى جو من الحرية والمساواة والاخوة ٠ ولابد من القضاء على العداوة والبغضاء

والتناحر ، لان التعاون بين الناس ضروری لتحقيق القيم السامية والعمل الصالح ، وللقضاء على الشر وعلى القيم الزائفة المخالفة لاوامر الله · ويجب على الانسان ، فى سعيه للحصول على السلع والخدمات ، ان يتخذ نفس الموقف السابق ، لان السلع والخدمات ان هى الا وسائل لتحقيق القيم الرفيعة ·

9 ـ ان مبادىء الحرية والمساواة والعدل والتعاون كلها تنبع من الفكرة الاسلامية الاساسية ، ألا وهى فكرة التوحيد · وهى الفكرة الازلية التى لابد لكل كائن فى هذا الوجود أن يشهد بصحتها · ولاشك أن تحقيق القيم الاسلامية من شانه أن يجعل حياتنا حافلة بالخير والجمال · على أن السعى لتحقيق هذه القيم يستلزم منا أن نعمل بجد ونشاط فى هذه الحياة · ومن هنا ندرك أن حياة الانسان هى أجمل ما فى الخليقة ، وأثمن ما فى الوجود ، لان الله كرم بنى آدم ، فأراد أن يكونوا ، فكانوا ··· لقد أراد الله أن نعيش ، وأن نتمتع فى حياتنا بالصحة والقوة ، وأن لا نركن للدعة والخمول ، بل ننشط سعيا لتحقيق القيم ، وامتثالا لاوامر الله · ولذلك فمما حثنا به الاسلام أن نحافظ على الحياة ، وأن نتمتع فيها بالصحة والقوة ، وأن تكون حالتنا الاقتصادية فيها حسنة · فالسلع والخدمات التى يحتاجها الانسان ، والتقنيات والافكار التى يستعين بها الانسان فى هذا المجال ، وكل ما يتخذه وسيلة لتحقيق الرخاء الاقتصادى ، كل ذلك له قيمة كبرى فى نظر الاسلام ·

10 ـ ولكن الرخاء الاقتصادى لا يجوز أن ينفصل عن السعى لتحقيق القيم الاخلاقية والروحية · فسلوك الانسان فى هذه الحياة لا يتجزأ ، بل هو متكامل ، لاننا مكلفون بتحقيق الأنواع الثلاثة من القيم بدون استثناء · فعلى الناس اذن أن يعملوا فى مجالات الانتاج والتوزيع والاستهلاك بكيفية تمكنهم من المعيشة الكريمة وتجعلهم يتمتعون بالحرية ، فيطيعون الله ويتعاملون بروح المساواة والعدل والتعاون ·

ونظرا الى أهمية هذه المسالة فى فلسفة الاسلام الاقتصادية ، فلابد من القيام بدراسة معمقة لنرى كيف تؤثر القيم السابقة على القيم الاقتصادية ، وكيف تتفاعل معها ·

أولا : ان القيم السامية بمثابة الغايات القصوى التى يطمح اليها الانسان من وراء الرخاء الاقتصادى ، وهى تحث الناس على العمل والنشاط الاقتصادى ٠

ثانيا : ان هذه الغايات القصوى تساعد المرء فى اختيار الوسائل الملائمة لتحقيق الاهداف الاقتصادية المباشرة ٠

ثالثا : وهى تمارس نوعا من الضغط على سلوك الانسان كفرد وكجماعة ، لتحقيق القيم الاقتصادية ٠

وبهذه الكيفية فان القيم السامية تدفع الانسان الى النشاط ، وتضع له شروط العمل ، وتدرج نشاطه هذا فى نطاق التعامل الاعتيادى بين الناس ٠ فالانتاج والتوزيع والاستهلاك تستمد مبادئها من تصور مجتمع يعم فيه الخير نتيجة للرخاء الاقتصادى ٠ والعمل فى هذه المجالات الثلاثة يتم بكيفية يتعزز بها جانب الخير ٠ أما الطرق والوسائل المقيدة للحرية والمساواة ، أو المنافية للعدل وروح التعاون ، فان الاسلام يحثنا على اجتنابها ٠

11 ـ وقد وضع الاسلام بعض القواعد لسلوك الافراد والجماعات سلوكا يضمن تحقيق هذه القبم المتكاملة ، سواء منها الاقتصادية أو الاخلاقية أو الروحية ٠ وهذه القواعد هى التى تتألف منها القوانين الاساسية المتضمنة فى الشريعة ، وينهل منها الفقهاء لوضع التشريعات الاسلامية بحسب مقتضيات الاحوال ٠ واليك فيما يلى بعض هذه القواعد باختصار :

أ ـ ان قضاء الحاجات الاساسية (الطعام واللباس والسكن والعلاج فى حالة المرض) يعتبر من الحقوق الاساسية ، كما أنه يعتبر من واجبات الدولة تجاه الافراد ٠٠٠ على أن هؤلاء الافراد مكلفون بالسعى للتمتع بهذه الحقوق ٠

ب ـ يلتزم الغنى ، فى النظام الاسلامى بأداء ما فرضه الله عليه تجاه الفقير ، لان الفقير له حق معلوم فيما يملكه الغنى ٠

ج ـ ان الملكية نعمة من الله ، وتتضمن واجبات تجاه الآخرين ، وهى خاضعة للقواعد الاخلاقية فى كسبها واستخدامها والتصرف فيها ٠

د ـ من واجب الدولة أن تضمن للمواطنين تكافؤ الفرص ·

هـ ـ ان حرية التعاقد والتعامل مكفولة فى حدود مراعاة القواعد الاخلاقية التى تضمن مصلحة الفرد والمجتمع ·

و ـ يجب أن تبنى الشركة على الاساس التعاونى ، وأن يتقاسم الارباح كل من يتحمل التبعات المتضمنة فى المشروع التجارى · وليس لمن يقرض المال الا حق المطالبة برأس المال الذى دفعه قرضا · اما الربا فهو ممنوع ·

ز ـ المصلحة العامة فى الاسلام مقدمة على المصلحة الخاصة · وتحظى الارزاق والسلع الكثيرة التابعة للجماعات ، تحظى بالاسبقية فى التأمين ، على الارزاق والسلع القليلة التابعة لفئة قليلة من الناس ·

ك ـ كنز المال ممنوع ، كما أن توزيع المداخيل والثروات محدد بشروط ·

12 ـ رأينا فى الصفحات السابقة ما هى القيم التى وضعها الاسلام ، وما هى قواعد السلوك المتفرعة عنها · وتندرج تلك الدراسة فى اطار الفلسفة الاقتصادية للاسلام وسوف تنبثق عن هذه الفلسفة الاسس التى يقوم عليها **علم الاقتصاد الاسلامى** الذى به يتأتى دراسة انماط السلوك السائدة ، والسياسة الاقتصادية المتبعة ، مع اقتراح حلول بديلة تستمد مبادئها من الاسلام ·

التاريخ الاقتصادى للاسلام

1 ـ ان التاريخ الاقتصادى للاسلام يدرس تاريخ الشعوب الاسلامية فى نطاق تحقيق المعايير والتعاليم الاسلامية فى النشاط الاقتصادى · فهو ينتقى من مواد التاريخ العام ، ماله صلة بالتاريخ الاقتصادى ، ويعرض ذلك كله عرضا منهجيا · كما أنه يتقدم بأحكام تقييمية لهذا التاريخ ، على ضوء المعايير الاسلامية الواجب تطبيقها فى النشاط الاقتصادى · وبذلك فانه يتعرض لموضوعى : الامتثال لاوامر الله ، وارتكاب المعاصى ، ويحلل أسباب كل منهما ، ويدرس ما لهما من تأثير على وضعية الانسان الاقتصادية · ولاشك ان النجاح فى تحقيق القيم الاسلامية المتمثلة فى الحرية والعدل والتعاون وكسب الرزق الحلال هذا النجاح متعلق الى حد بعيد بسيرة الانسان ، وسياسة

الدولة ، ونشاط المجتمع ··· أما الفشل ، فيرجع الى السيرة السيئة ، والسياسة الضالة ، والعمل الذى لا يجدى نفعا · فهذه الحالات المختلفة مرجعها فى الاصل الى درجة المعرفة ، وارادة الخير ، وما لكل انسان من مهارة فى التعامل · ولابد كذلك من الاشارة الى العوامل الخارجية ، ومالها من تأثير ··· على أن الباحث فى التاريخ الاقتصادى للاسلام يهمه بالدرجة الاولى أن يحيط بالوقائع الاقتصادية ، وأن ينفذ الى عواملها الداخلية ·

2 ـ ان السنوات الثلاث والعشرين الاولى من تاريخ الاسلام تعتبر سنوات حاسمة ، لان الكتاب المنزل ، والسنة النبوية امتزجا منذ ذلك العهد بتاريخ البشرية ، واتصلا بتاريخ شعب انتقل من حياة الجاهلية الى نمط جديد من الحياة هو الاسلام · فلابد اذن من أن يدرس الباحث كيف استجاب الناس للقيم الاسلامية ، وكيف فسروها ، وكيف طبقوها · ولابد أيضا من أن يتعمق الباحث فى دراسة بعض المسائل الهامة ، ومن جملتها تحرير الانسان من العبودية ، وطاعته لاوامر الله ، والسعى التدريجى لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية ، عن طريق تربية النفوس على الاعتزاز بالكرامة الانسانية ، وعلى معاملة جميع الناس بروح من الاخوة الصادقة ··· ومن جملتها أيضا المساواة أمام القانون ، وخلق روح التعاون فى الحياة ، مع اتخاذ ما يجب من التدابير المتعلقة بالامن والملكية العامة وقوانين الميراث الخ ···

3 ـ ان التطورات التى حدثت فى السنوات الثلاثين التى أعقبت عهد الرسول ينبغى أن توضع فى الاطار الذى حددناه لكى تدرك على حقيقتها · فالسياسة الاقتصادية التى اتبعها الخلفاء الراشدون الاربعة تستحق أن نتعمق فى دراستها لكى نميز الجوانب التى كان التقدم فيها مطردا ، من الجوانب التى عرفت فى الفترة الاخيرة شيئا من الركود · ولاشك أن السلوك الاقتصادى للفرد ، ونوع المؤسسات التى عرفها المجتمع الاسلامى منذ أقدم العهود ، ودور تلك المؤسسات فى المجتمع ، وبروز مؤسسات جديدة فى الحياة الاقتصادية الآخذة فى التوسع ، كل ذلك يستحق أن يعكف الانسان على دراسته بالتفصيل ، وأن يقدره حق قدره ·

4 ـ من المتفق عليه أن تمسك المجتمع الاسلامى بتعاليم الاسلام ومعاييره تعرض بعد عام 40 هـ لتقلبات متواصلة دامت عدة قرون . وأول عمل يجب القيام به فى هذا الصدد ، هو اجراء تحقيق شامل للوثائق التاريخية المتوفرة عن هذه الفترة ، وهو عمل لم ينته بعد . فالمحن التى تعرضت لها القيم الاسلامية خلال هذه الفترة يجب أن تدرس على أساس البحث عن أسباب الفشل ، وعن الظروف التى جعلت من الممكن احراز شىء من التقدم فى بعض الميادين .

ونظرا الى أن الاسلام انتشر وأصبح يضم أقطارا لها ظروفها الاقتصادية الخاصة ، وتراثها الثقافى الخاص ، فان تعاليم الاسلام صارت تطبق فى حالات جديدة تماما . ولاشك أن أنماط التعامل الاقتصادى التى برزت فيما بعد تأثرت الى حد بعيد بالاوضاع الاقتصادية التى كانت سائدة لدى تلك الشعوب قبل اعتناقها للاسلام ، كما تأثرت تأثرا عميقا بروح التعاليم الجديدة . وعلى هذا ، فمن المهم جدا أن يدرس الباحث أثر كل من هذين العاملين فى النشاط الاقتصادى .

5 ـ ثم انتشر الاسلام انتشارا واسعا فى أرجاء المعمورة ، وأصبحت الاوضاع الاقتصادية متنوعة بحسب الاقطار ، فبرزت نتيجة لذلك مؤسسات ومعاملات جديدة . وقد توسعت التجارة فى الداخل والخارج ، وظهرت حرف جديدة ، وتغير نظام امتلاك الارض ... ومع تزايد النشاط التجارى ، وازدهار الصناعات ، وتكاثر الاموال ، ألفت كتب كثيرة فى الفقه لابداء الرأى فى المعاملات الجديدة ، ولتحليل المؤسسات الجديدة. ولاشك أن هذه المؤسسات تعكس الفكر الاقتصادى المعيارى لذلك العصر . ونجد فى تلك الكتب أيضا محاولات لتحليل الوضع الاقتصادى ، وهذه المحاولات مقترنة بآراء أو حلول لتطبيق **الشريعة الاسلامية** ، كما أن كتب التفسير والفلسفة تعرضت بدورها لهذا الموضوع . أما الكتب الخاصة بالفلسفة السياسية حول **الحسبة** وفن السياسة والحكم ، فانها تستحق اهتماما خاصا . ومن المواضيع التى اهتم بها الفقهاء ورجال القانون : الضرائب والنفقات العمومية والقروض ومراقبة الاسعار ووضع القوانين للتجارة وتحديد العلاقات بين أرباب العمل والعمال ، ومسألة الاجور ، وامتلاك

الارض ، والسقى ، وما الى ذلك من المسائل الاخرى ٠ ومن يتأمل فى هذه الموضوعات المتنوعة يدرك كيف استطاع المفكرون المسلمون أن يعالجوا القضايا التى طرحت عليهم فى مختلف الحالات ، مع الحرص على الامتثال لتعاليم الاسلام ، وكيف كان تصورهم لسير النظام الاقتصادى ٠ ولاشك ان امثال هذه الدراسات من شأنها أن تثرى تاريخ الفكر الاسلامى والفكر الاقتصادى معا ٠

علم الاقتصاد الاسلامى

1 ـ ان علم الاقتصاد (أو التحليل الاقتصادى) يدرس السلوك الاقتصادى السائد فى دولة من الدول ، وسير الحياة الاقتصادية ٠ وبما أن هذا السلوك الاقتصادى موجه دائما نحو غايات معينة ، فان علم الاقتصاد المحض ، أو المحايد لا وجود له ، بل هو مجرد وهم وخيال ٠ ان علم الاقتصاد العصرى يدرس الانظمة الاقتصادية الرأسمالية على اختلاف أنواعها ، كما أن علم الاقتصاد الاشتراكى يقوم بالدراسة الوصفية للانظمة الاقتصادية الخاضعة للتخطيط المركزى ٠ وبما أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر اقتصاد اسلامى بأتم معنى الكلمة ، فان علم الاقتصاد الاسلامى المختص بالمجتمع الاسلامى غير موجود ٠ وسوف ينشأ هذا العلم عندما يوجد شعب يسلك سلوكا اسلاميا ، وينهج منهجا اسلاميا فى تعامله الاقتصادى ٠ والى أن يتم ذلك ، فان علم الاقتصاد العصرى وعلم الاقتصاد الاشتراكى يمكن الاستفادة منهما لفهم الواقع الاقتصادى الذى تحاول الحركة الاسلامية أن تغيره طبقا لتعاليم الاسلام ٠

2 ـ وهكذا نجد من جهة أن التحليل الاقتصادى العصرى له صلة باقتصاديات العالم الاسلامى لانه يحاول أن يفهم الواقع الاقتصادى السائد فى الاقطار الاسلامية ٠٠٠ ونجد من جهة أخرى أن فروع الاقتصاد التطبيقية تقف من هذا الواقع الاقتصادى موقفا آخر ، فعلم الاقتصاد الخاص بالتنمية ، والمالية العامة ، والتجارة الدولية ، والسياسة النقدية ، والعمليات المصرفية ، ونظرية الشؤون المالية ، واقتصاديات العمل ، كل هذه الفروع تدرس اليوم فى نطاق المعايير المتعارفة فى المجتمع الرأسمالى ٠ على أن الفكر الاسلامى ، يوم يضع فلسفة اقتصادية واضحة ، وينجح فى رسم طريق جديد لمجتمع

جديد ، فان هذه الفروع المختلفة من علم الاقتصاد سوف تحل محلها دراسات لها ارتباط وثيق بواقع العالم الاسلامى ، وما يطرأ فيه من حالات جديدة ٠

3 ـ والى أن تصير هذه الحالة واقعا ، فان مهمة علم الاقتصاد الاسلامى تتمثل فى عقد الصلة بين ما هو واقع وكائن ، وبين ما يجب أن يكون ٠٠٠ أو بين ما هو موجود ، وبين ما هو مرغوب فيه ٠ ولا شك أن مثل هذه المهمة تستلزم فهما دقيقا لكلا الامرين فهذا العلم يفترض القيام بتحليل الواقع ، مما يجعله من هذه الناحية على وفاق مع علم الاقتصاد العصرى ٠ على أنه يتبع منهجا خاصا ، من حيث أنه يتطلع الى ما يجب أن يكون فينهل من الفلسفة الاقتصادية للاسلام لتحديد المستقبل المنشود ، واحلاله محل الحالة الراهنة ٠ وأخيرا ، فان هذا العلم يصف الطريقة التى بواسطتها يمكن الانتقال من الواقع الى المستقبل المنشود ٠

ولتوضيح ذلك نستشهد بمثال أو مثالين ٠ فمن أهداف الاسلام تامين المأكل والملبس والمسكن والرعاية الطبية ، والتربية لكل رجل وامرأة ٠ وهذا هدف لا ينفرد به الاسلام بل تشارك فيه أغلب المجتمعات الحديثة ان لم تكن كلها ٠ على أن طرق تحقيق هذا الهدف تختلف من نظام اجتماعى الى آخر ، كما أن مدى تحقيق هذا الهدف يتفاوت ٠ ان علم الاقتصاد الاسلامى اذ يستفيد من كل هذه التجارب ، واذ يمتثل للمنهج الاسلامى الذى يعتمد على العمل الارادى التطوعى المتمسك بالقيم الاخلاقية ، مع فسح المجال للدولة كى تسعى لتحقيق ما يصبو اليه الفرد والمجتمع ، فانه سوف يضع أسس السياسة المنشودة للمجتمع الاسلامى ٠

وهناك مثال آخر يتعلق على الخصوص بنظام البنوك ، وبالنظام المالى على العموم ٠ فان علم الاقتصاد الاسلامى لابد أولا أن يقوم بدراسة تحليلية للمؤسسات الحالية ، ثم يعمد بعد ذلك للاشارة الى عيوب هذا النظام القائم على أساس الربا وابتزاز الارباح بدون حق مشروع ، مع الاشارة كذلك الى ما لهذا العمل من عواقب وخيمة على الصعيد الاجتماعى ٠ وبعد تبيان العيوب ، عليه ان يشرح الحل الاسلامى القائم على أساس المشاركة فى الارباح ، وقرض بدون ربا (فائدة) ، وعلى أساس التعاون ٠٠٠ وعليه

كذلك أن يهتم بمشكلة الانتقال من النظام السائد اليوم ، الى النظام الاسلامى المنشود ٠

وفى مجال تحديد السلوك للافراد والجماعات ، فان علم الاقتصاد الاسلامى يجب أن يتصدى للقيام بدراسة ميدانية لمعرفة ما سوف يسفر عنه تطبيق التعاليم الاسلامية من سلوك ومعاملات ٠ ولاشك ان علم الاقتصاد الاسلامى اذ يقوم بهذا العمل ، يرشدنا الى السلوك المثالى المناسب لكل وضع من الاوضاع الاجتماعية ٠

رجـال صنعـوا التـاريخ

محمد نسيــب

نائب مدير
بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة



كان سى عمر يعيش فى احـدى القـرى الجبليـة الجزائرية . فهو فلاح فقير لا يملك من حطام الدنيا سوى بغلة عجوز عرجاء ، ورثها عن أبيه منذ سنوات مع مهنـة الحطاب ، وكانت البغلـة عزيزة عليـه ، لانها رفيقـة طفولته ، وشاركت الاسرة فى كفاحها ومحنها ... لقد خففت عنهم وطأت الحمل الذى أنقض ظهورهم ..

فلا ترى البغلة الا وراءها سى عمر يحمل المنشار والمعول ، ذاهبــا الى الغابة أو عائدا منها ، فلا يفارقها الا عند النوم ، فالبيت مقسوم الى قسمين ، قسم لسى عمـر وأسرته ، وقسم للبغلة وبعض الحيوانات ، لا يفصل بينهما الا حاجز بسيط ، فكـان سى عمر يعتنى بالبغلة كل العناية ، يتفقدها فى الليل عدة مرات ، يقدم لها العلـف والحشيش ... ويمسح على ظهرها ... وكم يفرح .. عندما يراها تأكل .. وكم من مرة قالت له زوجته فاطمة : بع هذه البغلة العجوز العرجاء ، واشتر لنا بغلة صغيرة ،

تكون قوية على حمل الاثقال ، وسريعة فى السير ··· حتى يكون الدخل أكثر فتتحسن معيشتنا ، ولكن سى عمر كلما سمع هذا الكلام من زوجته فاطمة ، ثار فى وجهها ··· لانه يعتبرها أحد أفراد العائلة لا يقوى على فراقها ، مهما كانت الظروف ··· لم يفكر يوما فى بيعها أو فراقها ·

وفى ليلة أول نوفمبر سنة 1954 قام سى عمر فى منتصف الليل ليقدم العلف للبغلة كعادته ، فسمع طلقات البارود ··· وازيز الرصاص فى القرية ، يتجاوب مع الاصداء ··· فدهش وراح يتساءل مع نفسه ، فى حيرة وارتباك ··· لا يدرى ماذا حدث فى القرية ، ثم قال لعل أحد أغنياء القرية بشر بطفل وجاء الناس ليباركوا له ··· أو عاد أحدهم من الغربة ، ولكن هذا يكون فى الصباح لا فى منتصف الليل ··· وجاشت فى خاطره عدة أفكار · وتقدم الى البغلة وأعطى لها العلف ، ولكنها لم تأكل ، ولـــم تنظر اليه ، بل تنظر الى سى عمر وتتابع حركاته ··· ونزع لها العلف وقدم لهـــا الحشيش ، فرفضت كل شيء ، سوى نظرة الى صاحبها ، كأنها فهمت سر ذلك الرصاص ··· انه بداية الثورة وميلاد التاريخ ··· واعلان الجهاد وبعث الحرية من قبرها ستطوى كل الصفحات ··· وتفتح صفحة جديدة فى حياة الامة ، انه تغير جذرى يطرأ عـلى الحياة وتحول شامل فى كل ميدان حتى القرية وأهلها ودار سى عمر ، بل سى عمر نفسه يتحول ويتغير فلا يعود ينظر الى البغلة ويفكر فى شؤونها ··· ويتخذ أسلوبا جديدا للحياة أحب أم كره ؟ ؟

فكان سى عمر حائرا مرتبكا ··· فزاد ألما وحزنا لانه يخشى ان تموت بغلته ، فلا يستطيع أن يعوضها ، فتتعرض حياة الاسرة لخطر لم يقرأ له حسابا · فأوى الى فراشه لينام ولكن الهواجس تنهشه والافكار تتسارع فى صدره وتتضارب كأمواج البحر ··· وبات بين مد وجزر تارة يفكر فى البغلة وتارة يفكر فى الرصاص الذى سمعه يتجاوب مع الاصداء ··· فبات قلقا مضطربا ··· ساهرا لم يتسرب الكرى الى أجفانه ولـــم يشعر بالهدوء والاطمئنان ولو لحظة وجيزة ··· كأن صوتا خفيا تسرب الى اذنه يقول له : قم يا عمر واستعد ليس بعد اليوم نوم ··· ولا راحة ··· ورفع رأسه ليرى منبع

الصوت ، وسمع اذان الفجر يملأ رحب المنزل « الله أكبر ، الله أكبر » يتردد فى كل أرجاء ٠٠٠ وقفز من الفراش قفزة فحمل الشرابة وملأها من القربة فتوضا ، ثم ذهب الى المسجد ، فوجد الناس يتهامسون وتغمرهم الفـرحة والبهجة ٠٠٠ مستبشرين متفائلين ٠٠٠ وتقدم سى عمر الى أحد المصلين سى صالح ، وقال له : ما هذه النجـوى يا عمى صالح ؟ ؟ والبسمة التى أراها تطفو على الثغـور ٠٠٠ ما حـدث ؟ وتمـايل سى صالح نحو سى عمر ودنا الى اذنه ، وقال له : عجبا يا سى عمر ! أحقا ما تقول ؟ ليس خبر ! ! ألم تسمع الرصاص فى منتصف الليل ٠

وقال سى عمر أجل ، لقد سمعت الرصاص ودويا قويا ٠٠٠ ولكن لم أعرف عنه شيئـــا ٠

وقال سى صالح : أبشر يا سى عمر ان المجاهدين هم الذين فجروا القنابل فى عدة مراكز الاستعمار واطلقوا الرصاص على ذلك اللفيف الاجنبى الذى يسومنا الخسف والعذاب ٠٠٠ والاقطاعيين الذين يلهبون ظهورنا بسياطهم ٠٠٠ واوقدوا النيران فى مزارع هؤلاء الغزاة والبغاة ٠٠٠ الذين انتزعوا منا أراضينا وضموا حقولنا الى حقولهم.

ان هذه الفرحة التى تغمر الوجوه يا سى عمر وهذه البسمات التى تبدو على الثغور وهذه الآمال المتفتحة ٠٠٠ فى القلوب وهذه الصدور الزاخرة ٠٠٠ بالقوة والنشاط ٠٠٠ وهذه النفوس المتفجرة ٠٠ كلها تعبيرات وتقديرات لهذا المولد الجديد مولــد الثورة الجزائرية ثورة تحرير الانسان الجزائرى والعربى والافريقى ٠٠٠

انه فجر جديد انبثق نوره أطل على بلادنا يعلن نهاية ليل الاستعمار الرهيب الذى عانى شعبنا وحشيته وظلامه ومآسيه مائة واربعة وعشرين عاما ٠

وكان سى عمر يصغى الى حديث سى صالح السار ٠٠٠ بكل حواسه وشعوره ٠٠٠ وفجأة جال فى خاطره السؤال التالى :

هل المجاهدون لهم السلاح والعتاد ؟

ألا تعلم يا عمى صالح ما فعلوا فينا فى 8 ماى 1945 لقد قتلوا 45 ألف جزائرى وأحـرقوا خيـامهم ٠

كم ترك الحدث الاليم من الارامل والايتام ٠

وكم شرد من العائلات وتركهم بلا مأوى ولا مقر ٠

وكم ترك فى نفوسنا من مآسى وجروح لا تندمل ٠

أجابه سى صالح بهدوء ورزانة ٠ أجل يا سى عمر اذا اعوزهم السلاح والعتاد ، فلا تعوزهم العقيدة والايمان ٠٠٠ فالعقيدة والايمان هما سلاحنا الفعال فى كل معركة من معارك الحياة بهما نحطم كل الحواجز ونتغلب على جميع العراقل حتى نعيد لشعبنا حريته المفقودة ، واستقلاله المغصوب ، وشخصيته المسلوبة ، وننقذ كرامته المدوسة ، ونحيي لغته المنسية ونبعث أمة من جديد ونكتب لها تاريخا بدمائنا ونشيد لها مجدا بأشلائنا ٠٠٠

ولو تفوقوا علينا بالطائرات والدبابات والمدافع ٠٠٠ سنتفوق عليهم بالعزم والصبر والثبات ٠٠٠ سنصمد فى وجوههم كصمود جبالنا ، لا تتزحزح ٠٠ ونتصلب فى موقفنا كصلابة صخورها ٠٠٠ لا تتحطم ولا تتفتت أبد الدهور ٠

لو شردونا ، لو شنقونا ، لو قتلونا ، لو أحرقونا جميعا سيبقى رمادنا ينادى باستقلال الجزائر حتى تستقل ٠٠٠

ودخل الامام وتقدم الى المحراب ونادى الصلاة الصلاة رحمكم الله ، ونهض الجميع واصطفت الصفوف وترأصت خلف الامام ، وشرعوا فى الصلاة فتلا الامام هذه الآية الكريمة :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » ، وأحس سى عمر بينابع القوة تتفجر بين حنايا صدره ، واريج الحياة ينتشر ويملأ رحاب المسجد ٠٠٠ فزال ذلك الاختناق الممت ٠٠٠ واختفت تلك الاشباح المزعجة ، وخفق قلبه فرحا وسرورا ٠٠٠ بهذه البشرى السعيدة ٠٠٠ وراح يدعو الله فى تضرع وخشوع ٠٠٠

اللهم لا تحرمنى من الجهاد فى سبيلك حتى أفوز بالشهادة ٠

وانتهت الصلاة وعاد سى عمر الى البيت وقلبه مملوءا بالايمان والثقة بالنفس ، وعرف ان الاعتماد على النفس يفجر الطاقات ويخلق الامكانيات ٠

ان الآية الكريمة التى سمعها فى المسجد تغنيه وتكفيه عن سماع ألف درس أو محاضرة فى السياسة أو فى شرح الثـورة ٠

لم يكن سى عمر يسمع بالسياسة ولا يفهم معنى السياسة ، ونفسه تمتلىء نشـوة عندما يتحدث عن الغابة وأشجارها العالية ٠٠٠ ومسالكها الوعرة ٠٠٠

لقد تغير سى عمر بين عشية وضحاها بعد ان لمسه هذا التيار الخفى وهزه هـزا ، وأصبح لا يفكر الا فى الانضمام الى صفوف المجاهدين والالتحاق بالثورة ليقاتل مـن أجل تحرير الجزائر من مخالب الاستعمار وتطهير الارض من ظلمهم وفسادهم ٠

وبعد أيام اتصل بالمجاهدين وطلب الانضمام اليهم ليحارب معهم ، وطلبوا منـه أن يأتى بالسلاح اذا رغب فى الجهاد ٠ لان طريق السلاح كان مسدودا فى الايام الاولى من الثورة فلم يكن السلاح لدى المجاهدين سوى ما ينزعونه مـــن الجيش الفرنسى نفسه ٠ ولهذا كان السلاح يؤخذ ولا يعطى مثل الحرية ، ويشترط على كل مجاهـــد يرغب فى الالتحاق بالثورة ان يأتى بالسلاح الذى يقابل به ٠

رجع سى عمر الى البيت وهو يفكر فى الوسيلة التى يحصل بها على البندقية ، وأخيرا خطر له ان يبيع البغلة التى كانت ساعده الايمن ووسيلة خبزه ٠ ليشترى بثمنهـــا البندقية عند صديق له ، وعرضها للبيع وباعها بثمن زهيد لا يفى بمبلغ البندقية ، وازداد قلقا واضطرابا ٠

ولاحظت عليه زوجته فاطمة عدم الرضى والاستقرار ، وقرأت على ملامحه أشياء لم تتعهدها منذ اقترانهما ٠ وقالت له : ما أصابك يا عمر ؟ لقد تغير كل شىء ولا سيما منذ بعت البغلة ٠ أراك مشغول البال كثير التأمل طويل الصمت ، لا تسأل عن شىء ، ولا تمزح مع الاولاد كما كنت ٠

ماذا حدث ؟ وما دهاك ؟

سكت سى عمر قليلا ، ثم قال لزوجته : اسمعى يا فاطمة لقد كتمت عليك الامر واخفيت عنك سرا عظيما ، يجب ان تعرفيه ، حتى تساعدينى وتتحملى قسطك من العمل والمسؤولية .

اليوم يجب ان أبوح لك بسرى لن يبقى بعد اليوم سر ولا كتمان ، ستعرفين كل شىء يا فاطمة .

لقد اتصلت بالاخوان المجاهدين وطلبت التجنيد فى صفوفهم ، فطلبوا منى البندقية، فبعت البغلة فلم احصل على مبلغ البندقية ، فأنا أريد ان التحق فورا بصفوف المجاهدين بلا توان ولا تردد .

هذا سبب تغيرى وقلقى ... فاذا حصلت على البندقية انحل المشكل وانتهى كل شىء ، فستعود المياه الى مجراها الطبيعى . فقالت له فاطمة :

أهذا يحيرك يا عمر ؟ فنزعت القلادة من جيدها ، وارتبك سى عمر ، ولم يكد يصدق ان زوجته تتنازل عن قلادتها الوحيدة ، فمد يدا تضطرب وترتعش ، من شدة الفرح والدهشة ... ليأخذ القلادة . فقالت له بحزم وشجاعة : اطمئن يا عمر خذها ولا تخف ، بعها واشتر البندقية وشارك فى انقاذ الوطن . بالامس قدمتها مهرا لزواجنا واليوم نقدمها مهرا لحريتنا . أريد قلادة عز وشرف لا قلادة ذهب وفضة .

أشرق الامل فى وجه سى عمر فاستيقظت فيه العزيمة من جديد وعانقته النشوة ، وأخذ القلادة ، وباعها لبعض التجار عشاق المال والذهب واشترى البندقية وكمية من الذخيرة ، والتحق بجيش التحرير الوطنى ، وبدأ يخوض المعارك بحزم وشجاعة ... لا يعرف الضعف ولا الجبن ...

تراه دائما فى مقدمة الجيش شعاره فى كل معركة العبارة التالية :

أيها المجاهدون الى الامام نحن الرابحون نحن الفائزون ، من مات ، مات شهيدا ، ومن عاش ، عاش حرا طليقا . هذا هو شعار سى عمر وأمله الوحيد منذ التحق بالثورة وانخرط فى جيش التحرير الوطنى لا يفكر الا فى النصر أو الاستشهاد .

مرت أيام وأسابيع والثورة تشتد وتقوى ويرتفع لهيبها ٠٠٠ وينتشر شرارها فى كل جزء من أجزاء الوطن ٠

كثرت الكمائن واتسعت العمليات الحربية وارتفعت معنويات المجاهدين ، فى كل يوم يحصلون على الغنائم ويستولون على كمية من السلاح والعتاد الحربى وصار الجيش الفرنسى محاربا بسلاحه ٠

وشعر الاستعمار الفرنسى بخطر يهدد وجوده فى الجزائر ، بل فى افريقيا كلها ، ولمح نهايته تقترب وصرحه ينهار ٠٠٠ أمام عاصفة هوجاء وضربات قاسية ٠٠٠ وحاول ان يخفف حدة التوتر ، ويخفى هـزائمه ويغطى جرائمه بأكاذيبه المعروفة ٠ بعد أن تجاوز الحد فى العتو والبغى ٠

واتجه الضابط الفرنسى وجنوده الى القرية وجمع سكانها لينشر أضاليله وينفث سمومه ليعزل الشعب عن جيش التحرير الوطنى ، وشعر ان تحت قدميه أرضا صلبة ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد ٠ بدأت تنطق له الوجوه بمعانى لم يكن يراها من قبل ٠

ثم التجأ الى أسلوب آخر ، أى استعمال العنف والشدة بعد ان فشل فى سياسة المكر والخداع ٠٠٠ وراح يهدد بالبطش والقمع ٠٠٠ ظن ان القوة تصد هذا الشعب عن مطامحه وتسكته عن طلب حريته واستقلاله ٠٠٠ ويتنازل عن حقه الشرعى .

وفى المساء دخل سى عمر ورفاقه الى القرية وهـرع اليهم سكانها يتطلعون الى وجوههم المشرقة بنور الامل والتفاؤل ٠٠٠

وقف سى عمر و ى الجماهير الشعبية المحتشدة فى ساحة القرية ، تحية أخوية نضالية وقال لهم :

أيها الاخوان ان الاستعمار الفرنسى قد طغى وتجبر ، فسيطر على بلادنا وتحكم فى حياتنا وتصرف فى حريتنا ، وداس كرامتنا واهان مقدساتنا وعبث بمبادئنا ونهب أموالنا وأكل أرزاقنا وامتص دماءنا ٠٠٠

انه يشيد المدارس والمعاهد لتحتضن أبناءه تنمو فيها الافكار وتتفتح فيها العقول ، اما نحن فيبنى لنا السجون لتذبل فى غياهبها زهرة شبابنا وتذوى فى سكون مريع ٠

فهل نرضى بالعيش الرخيص الذليل ونصبر على الحيـاة التى ترضاها الحيوانات فى الغابات والوحوش فى الادغال ؟

فالعدو لا يفكر الا فى تذليلنا وتشريدنا وتمزيق وحدتنا وخنق أصواتنا وتخريب بـــلادنا ٠

كيف نرضى بعيش كله ضنك وبؤس ٠٠٠ ونحن نملك العزم الذى يفل الحـديد ويدك الجبال ٠٠٠

فكان أحد الخونة يتجسس فلما سمع الخطاب أوجس منه خيفة لان هذا الخطـــاب الملهب قد حرضهم على التضحية والفدا بلا شك سيحول القرية الى بركان ، وهـــرع الخائن الى مركز الجيش الفرنسى ليعلمهم بوجود المجاهدين فى القرية حتى يقتلـوهم ويطمئن على حياته وحياة أسياده المعمرين لانه يخشى اذا ماتوا أو رحلوا عن البلاد ، ان تنقطع عنه تلك الفضلات التى يلتقطها تحت موائدهم مثل الكلب الرخيص ٠٠٠

لم تمض بضع ساعات حتى ضرب الحصار على القرية من جميع الجهات ، وخـــرج سى عمر ليفتح الطريق لرفاقه وشق الحصار وأطلقوا عليه النار وبدأت المعركة بـين المجاهدين والجيش الفرنسى وكانت الزغاريد تنبعث من كل بيت تنطلق من محـــاجر القرويات تشجيعا وتأييدا للمجاهدين ، واستمر القتال حتى طلوع الفجر واستشهد رفاق سى عمر الاربعة واستطاع سى عمر أن يقتحم الحصار وينجو من الموت ، ويتجـه نحو جبل قريب من القرية واعتصم فى بعض حصونه الصخرية ٠

ثم هجم الجيش الفرنسى على القرية الآمنة وسكانها العزل من السلاح ٠٠٠ كالجراد على المزرعة ، وراحوا ينهبون ويخربون ٠٠٠ ويضربون النساء والشيوخ وهم يصيحون فى غضب وجنون كلكم فلاقة ٠

وفتشوا المنازل بيتا بيتا فلم يجدوا سى عمر وكان الضابط الذى يقود الحملة أحد أبناء المعمرين كالكلب المسعور ينبح ويعض حيث فقد رشده وعماه الحقد ٠ ولما خشى

الخائن اللعين ان ينقلب عليه دله على الجبل الذى تحصن فيه سى عمر ، فوجه جيشه الى عين المكان وحاصروا الجبل وصوبوا مدافعهم نحو الحصن وبدأوا يقنبلون والطائرة من فوقه تلقى اطنانا من المفجرات وسى عمر المجاهد كان فى حصنه المنيع ٠

فاستمر اطلاق النار عدة ساعات وسى عمر يستعد ويتهيأ وينتظر اقتراب الجيش الى الحصن ليبرهن على وجوده وشجاعته ، وبعد أن اطمأن الضابط الفرنسى وتيقن بأنه لن يبقى هناك حى فى الجبل أمر جنوده ان يصعدوا الجبل ويقتحموا الحصن ٠

وما كاد الجنود الاعداء يتسلقون الجبل حتى بدأت بندقية سى عمر المجاهد تزغرد فرحا وتيها ٠٠٠ وهو يكبر ويهلل وكلما انطلقت الرصاصة من بندقيته انطلقت من صدره كلمة (الله أكبر) بحرارة وايمان كأنها مدفع يدوى أو صاعقة تنقض على رؤوس الاعداء ٠ وكان كل شىء يجيبه : لبيك لبيك يا عمر ، فشعر بقوة لا تعادلها قوة وجيش عظيم يقف بجانبه يعززه ويقاتل معه ٠

وقذف فى قلوب الاعداء الهلع والفزع ٠٠٠ ونشر فى صفوفهم الرعب والقلق ، كل من حاول اقتحام الحصن ودنا منه أرداه قتيلا ، واشتدت المعركة وتواصلت بعنف وسى عمر مستبسل فى قتاله متصلب فى موقفه ، ثابت فى مكانه دفاعا عن حصنه ، حتى آخر النهار ٠

ونفذت له الذخيرة وبعث آخر رصاصة ، حطم البندقية فرماها حتى لا يأخذها العدو ، وخرج من الحصن يزحف على بطنه ويدب دبيبا ، وكان وابل الرصاص يتساقط عليه بغزارة ، فأصيب بعدة جروح ، لم يبق مكان فى جسده الا خرقه الرصاص ومزقته شظايا القنابل ٠ وهو يشعر بالآلام تقطعه ٠٠٠ وبالنهاية تقترب رويدا رويدا ولكن ابى أن يستسلم للموت والسكون ٠٠٠ بل راح يبحث عن آخر وسيلة يدافع بها عن حصنه ، وظل يتقدم قليلا الى ان وجد نفسه قرب صخرة دلف اليها وبدأ يدفعها بكتفه ، وهو لا يكاد يحركها ، وظل لحظات يدفعها ويزحزحها الى ان أقلعها ودفعها فانحدرت على رؤوس الاعداء ، وأحدثت دويا هائلا مزعجا ، حتى ظن الجيش الفرنسى ان الجبل بدأ ينهار ٠

وبرقت عينى سى عمر فرحا واغتباطا ونسى ما قاساه من تعب وألم ، واستعاد فى تلك اللحظة الوجيزة التى قضاها بين الموت والحياة ، ذكريات الايام الاخيرة من عمـره التى قضاها جهادا فى سبيل الله وناضل من أجل الحق والعدل والحرية ... ومن أجل اجتثاث طغمة فاجرة مجرمة من شذاذ الافاق جاءت لابادة هذا الشعب وابتلاعه ، وطمس آثـاره من الوجود .

كلما أحس بالموت ينشب أظفاره تذكر رفاقه الاربعة الذين مزقهم رصاص جيش الاحتلال فاستيقظت فيه العزيمة من جديد وأمدت جسمه الواهى بالقوة والامل ... وقال : ان قوة الارادة ... ستسحق قوة السلاح ...

واصل قتاله بالحجارة حتى صعدت روحه ، وخمدت أنفاسه وهدأ ذلك البركان الغاضب ... بعد ان لقن الجيش الفرنسى درسا فى الشجاعة والبطولة فى الصبـــر والوفاء ، فى العزم والثبات ... فى التضحية والفداء .

تقدم اليه الضابط الفرنسى فى خوف وحذر ... حتى وقف عند رأسه وهو ممدود على الارض ، يرمقه بنظرة شزراء مشحونة بحقد وبغض ...

وبعد ان فحصه بعينيه وحقق موته أمر جنوده أن يبحثوا عن سلاحه ، فلم يتركوا مكانا الا فحصوه فحصا ، ولا صخرة الا قلبوها ، ولا جحرا الا ادخلوا يدهم فيه ولكن عملهم هذا كان بلا جدوى .

وبعد ان يئس الضابط الفرنسى من العثور على سلاح المجاهد ، انحنى على جثمانه يفتشه آملا أن يجد بعض الوثائق الهامة أو يحصل على بعض أسرار جيش التحـرير الوطنى . ولكن خاب أمله واصطدم بالواقع ورأى الحقيقة عندما فتـــح « قلمـونة » القشابة فوجد مصحفا وحبة بصل وقطعة خبز الشعير وصاح ، ها هو سلاحه ... « المصحف والبصل عدته » ! ! !

عجبا كيف عاش بهذا الخبز الاسود القليل الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ... اما جنودنا ، فكل جندى ، عبارة عن مطعم متنقل يحمل أنواعا وألوانا ، من المأكولات

والمشروبات ، ووفرنا له جميع الوسائل والامكانيات وجهزناه بأحدث الاجهزة والاسلحة الاتوماتكية ، تحميه المصفحات والمدرعات ، وتعززه الطائرات ولكن (؟؟) ٠

وقد وقع ذلك على مرأى ومسمع حركى تجند فى صفوف العدو منـــذ سنة 1954 فتأثر بالغ التأثر مما جعله يفر من الجيش الفرنسى ويلتحق باخوانه المجاهدين ، بعد ان قتل الضابط الفرنسى الذى قاد الحملة والخائن الذى باع سى عمر ورفاقه ٠ و، ﻪ يرجع الفضل فى رواية هذه الصورة ٠